الطبعة
2

جائزة
الإبداع الأدبي
لعام 2018

عائشة قنديشة

AISHA KANDISHAH

بسام الدويك



رواية

عائشة قنديشة

(حين تصبح الغواية السبيل الوحيد للخلاص)

تأليف

بسام الدويك



عنوان الكتاب : عائشة قنديشة

الموضـــوع : رواية

التــأليـــف : بسام الدويك

مراجعة لغوية : عمرو سواح

الإخراج الفنيّ : عمرو سواح

تصميم الغلاف : إسلام مجاهد

الطبعة الثانية : ٢٠١٨

رقم الإيداع : ٢٦١٤١ /٢٠١٧

الترقيم الدوليّ : ٩٧٨-٩٧٧-٨٥٣٦٩-٦-٦

النـــاشــــر : دار (المثقفـون العرب) للنشـر والتوزيـع

elmosakafonalarab@gmail.com

٠٠٢٠١٠٣٠٢٩٧٤٩

شيرين القاضى




ساحر
الكتب



الإهداء

إن كان لابد أن أهدىَ هذا العمل لأحد، فإن أولى الناس بالإهداء هم أبناء جيلى التعس مواليد الثمانينات والتسعينات، أولئك المكافحون من أجل البقاء رغم الإحباطات والإنكسارات المتتالية، وإلى كل فتاة مصرية وعربية تعانى من قهر الذكورة وقلة الرجال .. هذا العمل لكِ وعنكِ .. إليكم جميعاً أهدى هذا العمل .

بسام الدويك



(الفصل الأول)

الكوتيسة

الأندلس .. القرن الخامس عشر:

أوشكت شمس ذلك اليوم من شهر يوليو على المغيب والذى لن ينساه سكان غرناطة قط، فمع غروب هذا اليوم توشك شمس الازدهار العربى فى الأندلس على المغيب مع قرب سقوط غرناطة فى أيدى البرتغاليين والأسبان، الأمر الذى جعل القاضى "قيس بن سهيل" يلكز جواده بقوة يحثه على الإسراع باتجاه ضيعته بعد أن أبلغه أحد خدمه أن جنود الفرنج فى طريقهم نحو الضيعة للاستيلاء عليها بعد أن عاثوا فسادًا فى كل الضياع التى استولوا عليها، هاجمته ذكريات بعيدة وحكايات جده عن مجد الأندلس حين فتحها فرسان أشاوس بقيادة موسى بن نصير والقائد البربرى طارق بن زياد، وكيف صارت مع الوقت ملتقى ثقافات عدة بين العرب والبربر وسكان البلاد الأصليين؟ حتى صارت أيقونة الحضارة فى العالم أجمع يقصدها طلاب العلم شرقًا وغربًا ليتتلمذوا على أيدى علمائها ويدرسوا فى جامعاتها، لم يستطع منع نفسه من السخط على ملوك الطوائف الذين أوصلونا لهذا الوضع بطمعهم وتفرقهم ورغبة كل أمير منهم فى الاستيلاء على مملكة الآخر.

فلولاهم ما سقطت الأندلس ولكن ما يهم الآن أن يعود للضيعة بأسرع وقت ممكن وليقض الله بعد ذلك أمراً كان مفعولا .

فى الطريق استشعر قيس أن الخطر قد دنا بحق؛ فالحوانيت أغلقت، وخلت الشوارع من المارة إلا من يهرول عائداً إلى بيته، أو امراة عصف بها القلق فخرجت تنتظر ابناً أو زوجاً على قارعة الطريق تتلفت حولها ذعراً، وعاد يلعن ملوك الطوائف، وصوت المدافع يدق أذنيه ويرجف لها قلبه خوفاً على عائلته، فعاد يلكز جواده بقوة أكثر مما جعل جواده يزيد سرعته فجأة بشكلٍ كاد يختل له توازنه ولكن تمسك بلجامه بشدة صهل لها الجواد وصوت سنابكه يختلط بصوت المدافع، وأخيراً لاحت له الضيعة من بعيد فدعا الله أن يكشفَ هذه الغمة ويحفظ له عائلته.

ما أن استطاع رؤية الضيعة بوضوحٍ حتى هاله منظر الجنود وهم منتشرون بكل الأرجاء وينهالون ضرباً على كل من قابلهم من الخدم؛ فاستبد به الغضب وتوجه نحو أكبرهم رتبة صائحاً :

-ماذا تفعلون بضيعتى ؟

نظر له الضابط باستهانة وقال :

-لم تعد ضيعتك منذ الآن .. لم يعد يملك أحد أى ضياع فى هذه البلدة، أم أنك أصم ولم تسمع صوت مدافعنا تدك حصونكم البالية؟.



-اللعنة عليكم وعلى مدافعكم، هذه ضيعتى وأنا قاضى القضاة.. وما أنتم إلا عصابة من الجبناء لم يكن يخطر ببالكم أن تطئُوا أرضنا إلا كشحاذين.

-اخرس أيها الشيخ المأفون قبل أن نلقنك درساً لن تنساه من فرسان مملكة اسبانيا .

ضحك قيس بسخرية وقال :

-فرسان؟ أى فرسان .. إنى لا أرى سوى مجموعة من الحثالة واللصوص .

-لقد اختبرت صبرى بما فيه الكفاية أيها العجوز .. أيها الجنود لقنوا هذا الأبله درساً.

سرعان ما وجد قيسٌ نفسَه محاصراً بالجنود من كل جانب وانهالوا عليه ضرباً بوحشية لم تحتملها سنوات عمره التى تجاوزت الستين؛ ففقد الوعى وهو يشعر بكل عَظْمة من عظامه تئن من الألم ولكن ما آلمه أكثر منظر زوجته المسنة وابنته والجنود يجرونهما خارج داره، وسقط أرضاً وفى عقله تدوى كلمة واحدة .. لقد سقطت الأندلس.

* * *



" عائشة "

نطق بها قيس بضعفٍ ما أن استعاد وعيه ليجد نفسه ملقًى على الطريق وبجانبه زوجته وابنته عائشة يحيطانه برعايتهما والدموع تتساقط من أعينهما كَمداً على ما أصابهم وأصاب الأندلس، بدا لهم جميعا أنها النهاية بعد أن طُردوا من أملاكهم وحياتهم القديمة وإن لم يستسيغوا بعد أنَّ كل ما حدث بدأ منذ ساعات قليلة.

- ماذا سنفعل الآن ؟

هكذا قالت ليلى زوجة قيس بأسى؛ فنظر لها بحزن والكلمات تغص بحلقه توشك أن تخنقه مما جعل صوته متحشرجاً وهو يقول :

- سنرحل.

- ولكن إلى أين؟.. لم يعد هناك مكان آمن فى الأندلس كلها.

- لن نبقى فى الأندلس.

التفت الأبوان نحو ابنتيهما التى ارتسمت على ملامحها علامات الحزم ممتزجة بسمات النبل فى وجهها وقد انعقد حاجبها وزمت شفتيها بقوة وأكملت:

- ماذا بقى لنا هنا؟.. لم يعد هناك أندلس ولا طوائف ولا دار قضاء ولا قاضى القضاة .. لم يعد لنا شئ هنا .. لم يبق إلا الحطام .

-ولكن أين سنذهب ؟

-سنعبر المضيق الذى عبر منه أجدادنا .. ولكن عكسيا.

صمتت عائشة قليلاً بعد جملتها الأخيرة ثم أردفت:



-نحو طنجة .

لم يعد هناك ما يقال بعد ما قالته عائشة لذا تحاملت الأسرة على بعضها وساروا نحو بيت أحد أصدقاء قيس الذى لم يستطع أن يمنحه أكثر من عربة متهالكة يجرها حصان يحمل عليها أسرته، وانطلقوا نحو الميناء لا يلوون على شئ، وقد تحطمت قلوبهم على ما آلت إليه أحوالهم فصاروا بعد عز أذلة وقد سقطت بلادهم فى يد الفرنج، واعتصرت قبضة باردة قلب القاضى حين رأى رعيته ينزحون زرافات نحو السفن لتحملهم إلى بلاد أخرى سيعيشون فيها غرباء، حتى وإن كان تلك البلاد يسكنها العرب المسلمون الذين نسوا أن الأندلس كانت يوما ما جزءاً من دولتهم.

تابع القاضى وأسرته المسير نحو سفينتهم التى ستحملهم نحو بلاد المغرب وقد أرسل لبعض معارفه هناك ليهيئوا له أمر معيشتهم، وما أن استقروا فى إحدى غرف السفينة وقد رتبوا أمتعتهم حتى سمعوا الربان وهو يصدر أوامره للبحارة استعداداً للإبحار نحو ميناء طنجة .

*   *   *



إلى هنا انقطعت الأخبار عن الكونتيسة عائشة وعائلتها ولم يسرد لنا التاريخ ماذا كان مصيرهم، فبعض الآراء تقول أن الفرنج قد هاجموا السفينة وأغرقوها وأن عائشة نجت بأعجوبة وحملتها الأمواج نحو جزيرة مجهولة في المحيط الأطلنطي قرب المضيق، وبعضهم يرجح أن السفينة وصلت إلى ميناء طنجة بسلام ولكن الفرنج هاجموهم هناك وقتلوا خلقًا كثيرًا وأنها تسببت في قتل الكثير من الجنود وأثارت رعب المحتلين حتى ظنوا أنها ليست بشراً، في حين يجزم آخرون أنها تعلمت السحر على يد عجوز من البربر الذين يسكنون الجبال في هذه المناطق، وسخرت سحرها للانتقام ممن قتلوا أهلها وشردوهم.

أيا كانت الحقيقة فإنه لا خلاف أن الكونتيسة عائشة أو كما يسمونها في المغرب عائشة قنديشة قد تحولت إلى أسطورة عن امرأة أو جِنية يملؤها الانتقام، وككل الأساطير لابد أن يكون لها أصلٌ حقيقيٌ ثم أضاف إليها الناس من مخيلاتهم عبر أجيال ما جادت به قريحتهم فنشأت أسطورة عائشة قنديشة .

* * *

(الفصل الثانى)

ناجى المنصورى

"أول ما خلق الله كان القلم. . قال اكتب . . قال القلم ما أكتب؟ . . قال الله : اكتب ما كان وما كائن إلى الأبد" حديث قدسى .

أنا القلم.. يمسكنى "ناجى " بيدٍ مرتعشة لا تستطيع قراراً.. أشعر بتلك اللحظة التى تنتاب كل مَن هو مقبل على كتابة أمر جلل.. هؤلاء الكتّاب جميعاً يبدون كما لو أن كلَّ واحد منهم سيكتب قدَرَه.. أستشعرُ تلك الارتجافات العصبية لأصابعهم التى تسرى فى أنسجتى فترتجف هى الأخرى وتكاد تُنطقنى بلا ورق.. لحظة الإلهام.. هكذا يسمونها.. هى شئ أقرب إلى حوار صامت بين الكاتب والقلم والورق.. يشكّلون معاً فرقة عسكرية فى مهمة خاصة خلف خطوط العدو.. قلق.. إثارة.. توتر.. وانتصار.. نعم ننتصر حين تبدأ الفكرة فى التحول لشئ مادى.. مقال، قصة، رواية.. لا يهم.. تبدو فى تحولها كأنها جنين مكث فى بطن أمه تسعة أشهر فى تحول دائم ما بين نطفة وعلقة ومضغة وعظام، ثم يخرج للوجود جنيناً مكتملاً سرعان ما يكبر ليضفى للحياة بهجة... أو تعاسة.. الكاتب الآن يحاول عبثاً كتابة شئ ما لا يدرى كنهه.. أشك أنه حتى يعرف ما الذى سيكتبه.. نبضات أصابعه تائهة مرتبكة ليست



محكمة كشأن من ينوى كتابة شئ محدد.. هذا كاتب يكتب لأجل الكتابة.. لا يعرف ما يكتب.. لا يهتم لما يكتب.. أغلب الظن أنه يعانى بعض الملل فقرر أن يجرب حظه مع الكتابة.. أغلب الظن أيضاً أن مصير ما يكتبه التمزيق شر ممزق ثم رحلة إلى سلة المهملات.. الحقيقة أن أسوأ أنواع الكتّاب طراً هو هذا النوع.. أجاهد لكى أترجم أفكاره المشعثة لتصير سطوراً مفهومة على الورق.. لكنى أنا نفسى لا أفهم.. هو لا يفهم.. ومَن سيقرأ لن يفهم.. ما العمل إذن؟!.. أنا القلم.. المتكلم الصامت أبداً، لذا فسأصمت الآن وأفسح له المجال ليكتب ما يود أن يكتبه عسى أن يخرج شيئًا نافعًا له.. أو للعالم .

* * *

اسمى" ناجى المنصورى".. مرشد سياحى مع إيقاف التنفيذ- لأسباب ثورية لا دخل لى بها- فبعد قيام ثورة الخامس والعشرين من يناير عام ٢٠١١ لم يعد هناك سياحة أو سيَّاح أو إرشاد، ووجدت نفسى وزملائى فجأة فى إجازة مفتوحة إجبارية يتخللها الكثير من الفراغ والمحاولات المتكررة لإيجاد فرصة عمل بديلة تدر علينا دخلًا ما لحين استقرار الأمور وعودة السياحة التى هى مصدر رزقنا الوحيد؛ لذا قررت أن أستغل وقت فراغى فى اصطحابكم فى رحلة سياحية مدفوعة الأجر.. رحلة خاصة جداً.. رحلة داخل شخص يكشف عن مكنونات قلبه على



الملأ.. شخص وجد فى نفسه الشجاعة ليكتب قصةً تحوى أدق أسراره.. أحلامه.. شطحاته.. حتى فى جنونه سيصحبكم معه.. سترتجفون فرقاً فى أشد كوابيسه وتضحكون ملأ أشداقكم على نكاته وتبكون معه أحزانه.

قد يسألنى أحدكم ما الذى يدفعنى لأقرأ حكايتك؟ ما يعنينى أنا فى أسرار شخص لا أعرفه؟ هذا الوقت الذى سأنفقه لقراءة هذا الهراء لن يُدخل جيبى جنيهًا لذا أفضّل أن أستريح وأمدد قدمىّ أمامى وأنا جالس على الأريكة أتابع إحدى القنوات الفضائية السخيفة.

أقول له حقاً لا أعرف ما الذى يدفعك لتقرأ عن حياة رجل آخر.. ربما هو الفضول.. ربما لتشعر بداخلك أنك أفضل وأحكم منى فتجنبت ما لم أتجنبه.. ربما لتهرب من دائنيك وزوجتك التى تتهمك دوماً بالكسل وبأنك " وش فقر".. أياً كان السبب فالشئ المؤكد أنك ستقرأ قصة أحدهم.. رجل جلست بجانبه فى الحافلة أو وقفت تثرثر معه حول غلاء الأسعار بينما تنتظران انتهاء الطابور الطويل أمام " فرن العيش".. إنها قصة رجل يعيش بينكم يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق.. أرجو أن تقضوا وقتاً طيباً فى رحلتى وأتمنى أن أكون مرشداً جيداً يقودكم بشكل محترف داخل دهاليز عقله وقلبه.. والأهم أن يستطيع إثارتكم لدرجة أن تكملوا قراءة قصته للنهاية.

أنا " ناجى المنصورى" الذى تعلم فلم يتعلم ورأى فلم يرَ.. حاولت أن أصبح شيئاً لكنى لم أجد شيئاً أكونه.. أحمل طموحاً لا يذوى.. وفكراً لا يهدأ.. وعجزًا لا ينتهى .. رأسى خلية نحل لا تكف عن



إزعاجى بطنينها ليل نهار.. ما زلت لم أملك شركة أو أخترع علاجاً للسرطان.. لم أقُد جيشى لتحرير القدس.. لم أعرف لماذا تهاجر الطيور؟، وكيف تعرف طريقها؟.. لم أكتشف هل مثلث برمودا حقيقة أم أسطورة.. مضى العمر ولم أقف عند بداية الطريق.. حياتى أقصر من أن أحقق جزءاً من أبسط أحلامى.. تخنقنا أحلامنا حتى يصير الحلم عبئاً لا يطاق.. وجرحًا لا يندمل.. تقاتلنا أحلامنا وكأنَّ أرواحنا تتصعّد فى السماء.. وتتجاذبنا المشاعر حتى نكاد لا نعى لها معنى.. يضنينى البحث والمحاولة.. يقتلنى اليأس آلاف المرات.. أنا ناجى المنصورى.. المصاب أبداً بحيرةٍ لا تنتهى.

يتساءل البعض من تكون حقاً يا ناجى؟!.. يحيطنى الكثير من الفضول.. الغموض.. ثمة توجس ممزوج بالسخط.. لا لم تصل بعد إلى حد الكراهية.. كل الذين قابلتهم منذ التحاقى بالجامعة وحتى تخرجى ثم عملى حتى بعض السياح الذين اصطحبتهم فى رحلة ما يسألوننى من أنت حقاً؟!.. لا أعلم ما المحير فى شخصى.. ما كنه ذلك الشئ الذى يسكننى فيجعلنى غريبًا؟!.. حتى عن نفسى.. أشعر كأن بعضى غريب عن بعضى.. بداخلى عالم لا يشبه عالمى.. كأننى خلية اقتحمتها جيوش فيروس شرس يأبى إلا أن يمزقها.. يشتتها.. يثير القلاقل والتمرد لتعصى أوامرى.. يتخلص بقسوة من حاميتها من كرات الدم البيضاء حتى تصير مع الوقت خليته لا خليتى، تطيعه لا تطيعنى.. أفكارى تتصارع.. تبدو كَسَلَّةِ بيض يهشم بعضها بعضاً حتى أنى قد لا أدرك الكثير منها.. آفة القراءة -



هوايتى منذ الطفولة - أنك ترى الأشياء على حقيقتها بلا رتوش بلا تزيين.. ترى نفسك تراباً وترى صديقك وحبيبتك وأعداءك تراباً .. ترى الشيوخ والمتدينين يرتكبون الكبائر بلا لحظة ندم.. ترى المؤامرة فى كل شئ.. بداية من عادات وتقاليد مجتمعك التى أكل عليها الدهر وشرب وحتى تقع فى مصيدة الصهيونية والمؤامرة الكبرى للسيطرة على العالم.. وبعد أن تقرأ بروتوكولات حكماء صهيون ستشعر أنك خائف، ضحية عاجزة تهيأ ليجهزوا عليها.. فريسة بلا مقاومة وبلا أمل فى النجاة.. تصرخ.. تحاول تحذير الناس من شئ ما أنت نفسك لا تحيط به علماً فلا تجد منهم إلا الاستخفاف أو الغباء.. حينها يتملكك اليأس وتلقى سلاحك وتخلع عنك رداء الحكمة لتعود لصفوف القطيع.. ستكتشف أن مكانك بالقطيع تم احتلاله، ثَمَّ آخر وجد مكاناً شاغراً فقرر أنه أحق به من رجل ضل الطريق ورفض منهاج القطيع.. تقف حائراً لا تدرى ما يجب عليك فعله!، فلا أنت أنقذت الناس من خطر مجهول، ولا أنت عشت بينهم.. فتجدهم يفرضون عليك العزلة والغربة.. لا يبيعون لك ولا يشترون منك.. لا يزوجوك بناتهم، أنت أخطر عليهم من الطاعون.. أنت تكشف سوءاتهم.. تهتك عوراتهم وغباءهم وسخافتهم.. تدمر عالمهم من جذوره، فلا تُبقى لهم شيئاً يتعلقون به خشية الغرق فى بحار الحيرة.. ملعونٌ أنت منهم ومن الأرض جميعاً حتى تتبع ملتهم.. يوشك كبراؤهم أن يقولوا فى نواديهم الخاصة التى يحيكون فيها مؤامرتهم: "أخرجوه من قريتكم إنه رجلٌ يفكر.. أنت تعلم أن لكل شئ آفة وها قد عرفت آفة



العلم ولكنك لن يخطر ببالك أبداً أن تتركه لأنك لا تملك ترف اختيار الجهل فقد مضت فرصة أن تكون جاهلًا.. لا تملك حق تقرير مصيرك فى أن تصبح رجلاً جاهلاً سطحياً يردد ما يسمع بلا وعى.. الجهل ترف لن تناله.. ها هو قدَرُك فاقرأ.. لا تحاول فكاكاً؛ لأنه لن يزيدك إلا تورطاً .

"نملة سوداء على صخرة سوداء فى عز الليل.. يرزقها ربنا ".

أتذكر الآن هذه الجملة التى قالها سائق سيارة الأجرة العجوز الذى ركبت معه ذات مرة بعد أن قامت الثورة وفقدت مصدر دخلى وهو يحكى لى عن سنين عمره التى تجاوزت الستين، عاش خلالها مئات التجارب، وسمع آلاف الحكايات، ثم خرج بتلك الحكمة.. حكى لى كيف كان مريضاً بصورة أقعدته عن العمل فلم يجد هو وزوجته العجوز ما يأكلانه فضلاً عن ثمن الدواء، وزوجته كل يوم تصبّره ببعض الكلمات حتى بدأ بالتعافى قليلاً فقرر النزول للعمل رغم إلحاح زوجته ألا يفعل .

حكى لى كيف قابل صديقه وهو سائق تاكسى مثله وقد تعطلت عربته ومعه سائحٌ خليجيٌّ سيذهب للمطار وكيف أنه أوصله ثم قضى له مشكلة تواجهه فى الجمارك من خلال زوج ابنته الذى يعمل موظفاً هناك؛ فأعطاه السائح مبلغاً كبيراً لم يكن ليحصّله فى ستة أشهر.

تُرى لمَ حكى لى ذلك؟ أكان يعلم أنى فقدت عملى؟ هل قرأ ذلك الحزن المحفور بملامحى كتمثالٍ نحتته يد فنان فرعونى من الدولة الوسطى؟ هل لمح فى عينى أن العمل لي ليس مجرد مصدر للكسب والعيش فقط وأننى لا أشعر بذاتى إلا بالعمل؟.. أن تكون طاقة خلّاقة



تفعل شيئاً لا يستطيع غيرك القيام به.. أن تحيا كأسطورة بين زملائك فالكبار يقدّرونك رغم صغر سنك، والصغار يحبونك رغم كِبَرك ؟ أيمكن أن تكون رسالة إلهية تخبرنى ألا تخشى شيئا فأنا رزقت هذا العجوز من قبل وهو لا يقدر على شئ؟.

أذكر أيام طفولتى أننى رأيت عنكوبتاً قد غزل بيتاً له فى إحدى أركان المنزل.. كثيراً ما تمتعت بمراقبته وهو يغزل.. وهو قابع بمكانه ينتظر- بصبر لا ينفد- فريسة يقودها حظها العاثر إلى حبائله.. لا أنسى محاولاتى المضنية والفاشلة برغم ذلك لاصطياد الحشرات وإسقاطها- عمداً- فى شباكه خاصة تلك الخنفساء البائسة التى قضت وقتاً أسوداً مقلوبة على ظهرها فى شباك عنكبوت.. لَكَم كنت ساذجاً!..كيف فكرت أن العنكبوت ينتظر مساعدتى لاصطياد فرائسه؟!.. الآن أعلم أننى لو جلبت له كل حشرات أفريقيا فلن يأكل منها، منتظراً تلك الحشرة التى لم أجلبها والتى تقع مصادفة فى حبائله.. كأنه ينظر لى ويقول: " يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم".. مَن أنت حتى تجلب لى طعاماً؟.. إنك إن أطعمتنى اليوم نسيتنى غداً.. لكن لى رازقٌ لا يضل ولا ينسى.. كان هذا العنكبوت حكيماً.. نظراته الصامتة وانتظاره الأبدى قالا كثيرًا لم أفهمه سوى الآن .. قبل أن يتملكنى الغضب واليأس فأهدم له بيته.

نعم أنا مبدع لكنى كسول وملول.. لا تنظر لى هكذا لست ممن يدّعون الإبداع كما تظن بدافع الغرور، ولكنها الحقيقة التى أقرها كل مَن تعامل معى.. إنى لا أكمل مشروعاً بدأته، ولا أثابر على قصة أكتبها،

ولم أواظب أبداً على لغة أتعلمها.. الشئ الوحيد الذى يفجّر فىّ كل الطاقات الكامنة هو العمل.. تلك النار المقدّسة التى تحرقك فتخلّصك من كل شوائب الكسل والخمول.. شريطة أن تكون محباً للعمل الذى تعمله مهما بدا تافهاً فى أعين الناس.. أما إن كنت تكرهه فسيكون مثل القطران يحرقك ويلوثك فى آنٍ واحد.

العمل فى وطنى يجبرك أن تكرهه.. إما بإغراقك فى الروتين والتكرار وأن تدور فى حلقة مفرغة من الإمضاءات وأن يكون دورك أن تسترخى على كرسى جلدى مكسور وتنهمك بحل الكلمات المتقاطعة، أو أن تأخذ قسطاً من القيلولة استعداداً لعمل ما بعد الظهر.. وإما أن يكون مديرك ضيق الأفق، نرجسى النزعة فلا يتوانى عن تذكيرك باستمرار بمدى ضآلتك ودونيتك، وأن كل ما تبدعه ما هو إلا هراء وتضييع لوقت المؤسسة الثمين.. كما أنه لا يخفى عنك كراهيته لك تحديداً لأنه يعلم أن صاحب المؤسسة لو عرف بأفكارك ربما جعلك مستشاراً له.. إنه الحقد كما تعلم.. أن تكون أنت الموظف الصغير تتكلم الفرنسية والإيطالية بطلاقة إلى جانب الإنجليزية.. أن تكون أنت الموظف الصغير تحضّر للدراسات العليا وربما تحصل على الدكتوراه يوماً بينما مديرك أنهى دراسته الجامعية بالكاد، لهو أمرٌ يجعل مديرك يكرهك كحماته.. وربما أكثر.

الناس فى وطنى لا يحبون عملهم لهذا السبب.. الناس لا تشعر بآدميتها لهذا السبب.. وطنى لن يتقدم يوماً لهذا السبب.. أىُّ جحيم أن



تعمل أربعين سنة فى عمل لا تحبه.. أىُّ عبث سيزيفي هذا؟.. أربعون عاماً نتيه فى عمل كتيه بنى إسرائيل بلا أمل فى الوصول لشئ .. الناس فى وطنى تكره أعمالها لا شك لكنهم مضطرون.

- ماذا تفعل ؟

هكذا قالت ميرفت زوجتى وهى تفتح باب غرفتى قاطعة حبل أفكارى؛ مما جعلنى أترك القلم وأفرك عيناى التى أرهقتهما بالتدقيق فى الكتابة ثم قلت :

- كما ترين.. أكتب.

- هل تعلم كم مضى عليك وأنت تكتب؟! .. حوالى أربع ساعات كاملة، لم تخرج فيهن من الغرفة ولا سمعت لك صوتاً، حتى أننى خفت أن يكون قد أصابك مكروه لا قدر الله .

نظرت إلى ساعة الحائط بجانبى فوجدتها قد تجاوزت الثانية عشر والنصف ظهراً، وكنت قد بدأت الكتابة فى الثامنة، كيف مرَّ عليّ هذا الوقت دون أن أشعر؟!، عدت أنظر إليها وأجبت :

- أنا بخير لا تقلقى.. ربما سهوت أثناء الكتابة فلم أشعر كم مضى عليَّ من الوقت.

- حسناً يا حبيبى.. هل من الممكن أن تقوم بعمل السلطة حتى أنتهى من تحضير الغداء، فصافية وآدم أوشكا على الوصول من المدرسة.

* * *



(الفصل الثالث)

الكتاب

أذن مؤذن المسجد المجاور لمنزلى لصلاة المغرب بصوته الندى الذى يجعلك تسبح فى ملكوت ما قبل الخلق، لطالما سحرنى الآذان بصوته مذكراً إياى بجدى الذى كان شيخ إحدى الطرق الصوفية المنتشرة بمصر حين كان يجلسنى بجانبه وحوله مريدوه يرددون الأذكار والأشعار الصوفية التى تتغنى بأسماء الله والذوب عشقاً فى صفاته بصوت جماعى خلفه متحلقين فى حلقة كبيرة باتساع المسجد كله .

"والله ما طلعت شمس ولا غربت..

إلا وحبك مقرون بأنفاسى..

ولا خلوت إلى قومٍ أحدثهم..

إلا وأنت حديثى بين جُلّاسى.. "

ارتفعت نغمة هاتفى الجوال بتلك الأبيات المقتطعة من إحدى القصائد الصوفية الشهيرة تنبهنى أن أحدهم يتصل بي وسرعان ما تبينت أنه صديق عمرى الوحيد " محمد جمال ".

- جمال .. كيف حالك؟.

- بخير والحمد لله .. ماذا عنك؟.

- بخير.. هل انتهيت من عملك ؟.
- نعم.. هل أنت جاهز؟.
- سأرتدى ملابسى وألحق بك فى المقهى.
- حسناً.. نصف ساعة وأكون هناك.
- اتفقنا.. سلام.

أغلقتُ المكالمة وابتسمت.. فلم يكن هذا الحوار استثنائياً، بل هو حوار يتكرر حرفيًا كل يومين تقريباً.. فقد اعتدنا منذ أيام دراستنا الثانوية أن نُنهى التزاماتنا أيًا كانت ثم تدور هذه المكالمة بيننا وكأنها صلاة صداقتنا التى يجب أن نؤديها يومياً وإلا انتابنا الذنب، ولم يكن يمنعنا من أدائها سوى أمر جلل لا يحتمل التأخير، بعدها نهرع مسرعين إلى ذلك المقهى المسمى بالسلطنة فنحتسى الشاى وتتطاير بيننا الأحاديث مختلطة بأدخنة أراجيلنا ذات نكهة الخوخ المميزة؛ لذا أسرعت بارتداء ملابسى فى دقائق معدودة، وتوجهت ناحية الباب لأجد ميرفت مازالت تستذكر الدروس مع آدم ثم نظرتْ إلىَّ قائلة :

- أذاهب مع صديقك جمال اليوم أيضاً؟.

رددت باقتضاب وأنا أريد أن أنهى هذه المحادثة سريعاً :

- نعم.. لن أتأخر.

أجابت وقد غشى صوتها نبرة إحباط واضحة:

- أرجوك لا تنسَ أن تحضر لنا العشاء.
- إن شاء الله .



ثم أسرعت بالخروج قبل أن تستوقفنى مرة أخرى.. فميرفت كأىّ زوجة مصرية حنون وتملؤها الطيبة، وتعرف كيف تعتنى ببيتها إلا أنها - كأى زوجة مصرية أيضًا- لا تتقبل فكرة خروج زوجها بشكل شبه يومى لمقابلة أصدقائه.. فهم بالتأكيد أصدقاء سوء سيجرونه إلى معاقرة الخمر أو صحبة الساقطات.. ورغم أنها تعرف جيداً طباعى التى تنفر من هذا الشكل من الحياة، وتعرف جيداً أن متعتى الوحيدة هى الجلوس إلى "جيمى" - كما أحب أن أناجيه- مدخنًا أرجيلتى إلا أنها مازالت لم تتخلص من وسواسها القهرى بعد بأننى سأنحرف يومًا ما.

- ها قد جئت أخيرًا .

قالها جمال أو "جيمى" مباعداً بين ذراعيه ليحتضننى بشدة؛ فأجبته ضاحكاً :

- كالعادة تشرق شمسى مساءً كما تعلم.

أجابنى ممازحاً وهو يربت على كتفى:

- حسنا .. اجلس أيها الشمس فأرجيلتك على وشك الوصول، وها هو الشطرنج قد حضر.. استعد لهزيمة ساحقة.

جلسنا نتسامر فى شتى الموضوعات وعلت ضحكاتنا.. كانت تلك من اللحظات القليلة التى نستعيد فيها أيام صبانا البعيدة وارتفع صوت حماسنا ممتزجاً بصوت تحرك القطع على رقعة الشطرنج مضيفاً لحناً ساحراً على اللحظة ..

- كم الساعة الآن ؟



سألت جيمى مطيحاً بملكه بحركة بارعة منهياً المباراة بفوزى فصاح جيمى :

- ثمانية وعشر أيها المحظوظ.

- يكفيك ما نلته من هزيمة اليوم.. دعنا نذهب إلى شارع النبى دانيال، مضى وقت طويل منذ آخر زيارة لنا وشرائنا للكتب من هناك .

- هيا بنا.

توجهنا لشارع النبى الدانيال الذى يعرفه كل من اهتم بالقراءة والكتب يوماً، فهو بمثابة سور الأزبكية لمثقفى الإسكندرية، أخذنا نتبختر بين الأكشاك المقامة بطول الشارع، نقلّب الكتب هنا وهناك، تحوطنا عبارة " اتفضل يا باشا " من الباعة.. لفت نظرى كتاب ما فأشرت لجيمى الذى اتجه ناحيتى وتناول الكتاب من يدى قارئاً عنوانه :

- عائشة قنديشة.. سيدة البحار والبرارى .

نظر لى فى عدم فهم، فهززت رأسى نافياً معرفتى بكنه محتوى الكتاب فاتجهت للبائع - وقد كنت أعرفه من كثرة تعاملاتنا معاً - سائلاً إياه:

- ما هذا الكتاب يا حسين؟

أجاب الرجل وهو يمط شفتيه تعبيراً عن عدم المعرفة وقال:

- والله لا أعلم عنه شيئاً يا أستاذ ناجى، فهذا الكتاب قد وصلنى منذ حوالى ستة أشهر مع مكتبة رجل ثرى.. يقولون أنه كان ذو أصل مغربى، عاش فى مصر زمناً، وعندما توفى باع ابنه كل شئ وهاجر.

عدت أتصفح الكتاب فلم أجد اسم كاتبه، فنظرت إلى جيمى نظرةً فَهِمَ منها أن الكتاب يستهوينى وأننى سأشتريه فابتسم.

قلت متصفحاً الكتاب:

- كم ثمنه؟.

أجاب حسين وقد لمعت عيناه على ذكر المال:

- قم أنت بتثمينه يا أستاذ، فلن أراجعك فى الثمن.

كنت أعرف أن كتاباً كهذا لن يجد مَن يشتريه على الأرجح، وهو لا يعرف كيف يقيمه مما جعله زاهداً فيه؛ فجعل زمام المبادرة فى يدى، فأخرجت من جيبى ورقة من فئة الخمسين وأعطيتها له، تهلل لها وجهه شاكراً وقال :

- أنا فى خدمتك دائماً يا أستاذ ناجى .

- شكرا يا حسين .

مضينا فى طريق عودتنا، ولم يستطع جمال أن يخفى تعجبه أكثر من ذلك فقال :

- ماذا ستفعل بكتابٍ كهذا؟.. إنه لا يستحق حتى عشرين جنيهاً.

- يا صديقى هذا رزقه، ثم إن الكتاب قد استحوذ علىّ، عنوانه غريب، وغير معروف كاتبه.. شئ يشبه ألف ليلة وليلة.. أنت تعرف أن هذه النوعية من الكتب تستهوينى.

- كما ترى يا صاحبى.. سأذهب أنا وأدعك لملكوتك.

أجبته بمرح ملوحاً له :



- وداعاً يا صديقى

انصرف جمال متجها لمنزله وظللت أنا أتسكع قليلاً، متصفحاً كنزى الثمين بين لحظةٍ وأخرى، وانتابتنى نشوة أثارت الرعشة بجسدى لطالما انتابتنى حين أحصل على كتاب جديد يثير شغفى، وشغلتنى فكرة أين وكيف سأقرؤه؟.. أأعود إلى السلطنة وأقرؤه بجوار أرجيلتى العزيزة أم أعود للمنزل وأقرؤه مرتشفاً فنجاناً من القهوة؟.

انطلقت لا ألوى على شئ، أفكر فى كلا الاختيارين حتى وجدتنى أستقل إحدى سيارت الأجرة .. ومضيت أتفحص الكتاب للمرة العشرين بعد المائة، وأقلب صفحاته المصفرة التى تشى بمدى قدم الكتاب، وعلى ضوء المصباح الخافت بالسيارة عدت أقرأ عنوانه " *عائشة قنديشة*".

- على فين يا أستاذ؟.. سألنى السائق فأجبت شارداً :

- إلى أبى قير.. البحر.

لم أكن أعلم أن تلك الليلة ستغير مجرى حياتى للأبد، وأن ذلك الكتاب تحديداً سيكون مختلفاً عن كل ما قرأت من كتب.

* * *



لم أعرف لمَ اخترت تلك المنطقة النائية من الإسكندرية خاصة أنها تبعد عن البيت كثيراً.. عامة تعودت منذ شبابى على القراءة فى المقاهى أو على البحر.. هذا الجو يضفى متعة خاصة لما أقرأ.. خاصة لو كان اسمه موحياً مثل هذا الكتاب.. الحق أن الكتاب يعد بساعات من المتعة اللامحدودة .. فقط لأصبر حتى أصل لأبى قير ثم أبحث عن مقهى يقدم النرجيلة ذات النكهة الفواحة ثم أبدأ بالقراءة.. أرجوك لا مجال الآن للحديث عن أضرار التدخين وأنواع السرطانات المائة التى يسببها والتدخين السلبى الذى أؤذى به الناس.. فقط دعنى أجلس مسترخيًا أستنشق عبيرها ولا تفسد الجلسة بمثل هذا الحديث.. فقط اجلس بجوارى وضم ياقة معطفك لأن الجو بارد ولنبدأ القراءة لنعرف من هى عائشة قنديشة .

" إلى هنا انقطعت الأخبار عن الكونتيسة عائشة وعائلتها ولم يسرد لنا التاريخ ماذا كان مصيرهم، فبعض الآراء تقول أن الفرنج قد هاجموا السفينة وأغرقوها وأن عائشة نجت بأعجوبة وحملتها الأمواج نحو جزيرة مجهولة فى المحيط الأطلنطى، وبعضهم يرجح أن السفينة وصلت إلى ميناء طنجة بسلام ولكن الفرنج هاجموهم هناك وقتلوا خلقًا كثيرًا، وأنها تسببت فى قتل الكثير من الجنود وأثارت رعب المحتلين حتى ظنوا أنها ليست بشراً، فى حين يجزم آخرون أنها تعلمت السحر على يد



عجوز من البربر الذين يسكنون الجبال فى هذه المناطق وسخرت سحرها للانتقام ممن قتلوا أهلها وشردوهم، أيا كانت الحقيقة فإنه لا خلاف أن الكونتيسة عائشة أو كما يسمونها فى المغرب عائشة قنديشة قد تحولت إلى أسطورة عن امرأة أو جنيّة يملؤها الانتقام، وككل الأساطير لابد أن يكون لها أصلٌ حقيقيٌ ثم أضاف إليها الناس من مخيلاتهم عبر أجيال ما جادت به قريحتهم فنشأت أسطورة عائشة قنديشة. "

توقفت عند هذا الجزء متأملاً للحظات، فقد بدت الصفحات الأولى للكتاب غير متسقة مع باقى الكتاب، فهى تبدو أحدث منها كما تبدو كأنها تعريف بشخصية حقيقية عاشت بالأندلس وقت انهيارها، ربما لو أطلقت لخيالى العنان لقلت أن مالك الكتاب السابق - أو أحد مالكيه السابقين - قد كتب هذا الجزء خصيصا للتعريف بهذه المرأة.

أخرجت مفكرتى الصغيرة التى ترافقنى دوماً وكتبت بخطٍ صغيرٍ استنتاجى هذا وشرعت أقرأ أولى صفحات الكتاب الرئيسية.

" فلتحمل الرياح عطرى إلى أقصى الأرض.. املأ به صدرك أيها الغريب وانتشى.. هذا عطر عائشة فلا تتمهل .. فليقُدك عطرى حيث أكون ولتكن أنت سلوتى هذه الليلة.. أنت لا تعلم مَن أنا، لكنك لن ترفض دعوتى.. تعال واسترح قليلاً من عناء سفرك الطويل.. تعال لأظلك فى واحتى وتضع خدك بين كفى وتنام عسى



أن تصحو فى عالم أفضل.. هيا ولا تتمهل.. عائشة قنديشة لا تحب الانتظار".

يا إلهى .. هذا الكتاب هو عين الغواية.. إنه الغواية حين يسطرها شيطان رجيم.. كيف لى بهذا الفوران فى جسدى وكأنه بركان خامد ينشط من جديد.. كأنى عدت لسيرتى الأولى ذاك الفتى الطائش الذى لا يتحمل إلا أن يقع فى حب أول فتاة يقابلها أو يستسلم أمام أول فراش يقابله.. الحق أنى لم أصمد لإغراءٍ قط ولكن هذا زمن ومضى وتزوجت وتركت مع زواجى كل نزواتى.. لا يوجد ما يبرر تلك الرغبة التى اجتاحتنى بغتة فتلك الفقرة وإن كانت موحية بشئ ما ولكنها بالتأكيد ليست نصاً إباحيا يثيرنى إلى تلك الدرجة.. هذا الكتاب ليس على ما يرام.. اقترب منى ولتقرأ معى.. عيناى تؤلمانى بسبب ذلك الضوء الخافت.. هيا اقرأ لى الفقرة التالية بصوتٍ عالٍ ....

" تحت الضوء الفضى للقمر سنجلس وأسند رأسك إلى فخذى.. أداعب شعرك فتتخلّله أصابعى.. أتحسس جسدك فتنفتح البوابات الخلفية به مطلقة كل حمم البراكين بدمائك.. حينها لن ترى سواى.. لن ترَى سوى عائشة ".

لماذا زادت ضربات قلبك هكذا؟ أرى وجهك قد تحول لثمرة طماطم ناضجة.. يداك ترتعشان ؟! ليس الجو بارداً إلى هذه الدرجة.. أم تراه الكتاب مرة أخرى؟.. إن أفضل ما يجب فعله هو العودة للبيت



واستكمال ما بدأناه هناك.. الوقت متأخر ؟! .. لا يهم.. أنا لا أعمل إذن فلأستمتع قليلاً بالسهر والاستيقاظ بعد صلاة الظهر كما يفعلون.

هكذا كنت أحادث نفسى بينما أغادر المقهى، نظرت لساعتى – التى أهدتنى إياها زوجتى أثناء خِطبتنا – فإذا بها تشير للعاشرة.. ما زال فى الوقت متسعٌ للتسكع قليلاً على البحر.. كما ترى وجدتنى أسير وحدى.. لا أثر لبشرٍ حولى رغم أن الوقت مازال مبكراً.. إنه بداية دخول الشتاء كما تعلم.. الماء المالح يتشمم حذائى بحذر بعد كل موجة تتكسر.. شعرت حينها أننى لم أكن طوال حياتى سوى موجة من تلك الموجات.. أندفع بكل قوتى نحو شئ ما لا أدرى كنهه، ثم أتكسر على حافته لأعود من جديد للاندفاع نحوه فأتكسر، وهكذا فى مأساةٍ سيزيفية أخرى من مئات المآسى السيزيفية التى لا تنتهى، والتى تكشف لنا العبث حين يصبح نمطاً للحياة.. حتى الآن لا أدرى أين يكمن الخطأ فى حياتى؟.. لماذا لم أكن سعيداً رغم توافر كل أسباب السعادة.. "مكتوب".. هكذا كانت تقول أمى.. كل شئ عندها " مكتوب ".. ربما هى على حق.. ألم يهبط أبونا آدم من الجنة إلى الأرض ليجوع ويشقى ويكدح؟!.. ألم يكن هذا مكتوباً؟!.. هل حياتنا قدرية إلى هذا الحد؟ أنحن عاجزون إلى هذه الدرجة؟.. أنعجز حتى عن نسيان ما نود نسيانه؟.. ولم ترانى عاجزاً عن نسيانها بعد كل هذه السنين؟.. أيكون حبها هو القدر الذى لا فكاك منه؟.. لماذا تنتاب قلبى البرودة بعد فراقها؟.. عشرون عاماً مضت على زواجها.. عشرون عاماً مضت على



اغتيال قلبى وبعدها لم أعد أشعر سوى بأشباه المشاعر.. شعور يشبه الخوف وشعور كالقلق وشعور يبدو كالحب.

" نادرة " كان اسمها.. وحقيقتها أيضاً.. تشبهنى إلى حد التطابق.. ونختلف إلى حد التنافر.. عيناها كانتا شيئاً سماوياً لم أعرفه.. فيروزتان من الجنة.. لن تتصورهما إلا إذا رأيت مثلهما لكنك لن تجد مثلهما قط، " نادرة " شفرتى التى فكت كل طلاسم روح.. تعويذة أزالت لعنتى.. علمتنى شيئاً لم أره فى غيرها، علمتنى كيف يعطى القلب بلا مقابل ولطالما تعجبت من ملائكيتها، تعلمت لكنى لم أصبح مثلها.. لا يجرؤ بشرىٌّ أن يشبهها، " نادرة " ليست أنثى أحببتها.. فى كثير من الأحيان أشعر وكأنها معنى مجرد.. هى الجمال.. هى الحقيقة.. هى الأمل الذى يغذينى.. هى الطموح الذى يراودنى.. هى كل المعانى التى تعجز الكلمات أن تصوغها.

الآن هى مع زوجها ولديها أبناء.. ربما أكبر قليلاً من " صافية " ابنتى.. ما سر هذه الرجفة اللذيذة التى تجتاحنى حين أذكرها؟ إنها هى ذات الرجفة حين كنت أقابلها وأنتظرها ساعة أو اثنتين؛ لأحظى بالغوص فى عينيها.. ليسحرنى اعتذارها عن التأخير وكأنى لم أنتظرها قط.. كانت تعتذر كأنها لم تقترف خطأً.. اعتذار مَن يملك القوة أمام مَن يملك الحق.. رغم كل شئ يداعبنى الأمل أحياناً أننا سنلتقى.. عندى يقين أنى لن أموت قبل أن أجالسها.. لكم تمنيت أن يكون موتى بين ذراعيها، حينها قد يبدو الموت شيئاً طيباً.. سأقول فى نفسى لم يكن الموت



سيئاً إلى هذا الحد الذى تصورته.. سأقول لها أحبك .. نعم أحبك.. قد تقول من بين دموعها: أعلم، لا تقل شيئا.. سأبتسم حينها فى إشفاق وأقول أحبك، لقد حُرمت منها سنين وربما قدرى أن أقولها وأنا أودعك.. لكم سيغدو الموت رائعاً حينها وأنا أغمض عينى بسلام وصورتها منقوشة فيهما.. أحياناً أجلس بغرفة مكتبى أجتر ذكرياتى معها وأشعر وقتها أن لقاءنا منحة أخذتها على غفلة من تقلبات الزمن، كأنى فى حجرة العمليات يتم تخديرى كى لا أشعر بمبضع الجرّاح .

" نادرة " كانت جنتى التى طُرِدت منها لأشقى وأجوع وأعرى وأكدح.. طريد فردوسها أنا، أحببتها أكثر مما ينبغى وأقل مما تستحق.. شمساً كانت، وكان جناحاى من الشمع فسقطت حين دنوت، ستبقى "نادرة " فى وجدانى وسأبقى أسيراً مهما بدوت حراً.. سأهرع إليها قبل أن تنادينى فقد تعودت أن أشعر باحتياجها يزلزل أعصابى وأجدنى أبحث عنها حتى أجد إليها سبيلا.. طوال هذا العمر أسائل نفسى: ما نهاية كل هذا ؟.. أى قدر ربطنى بامرأة لن تكون لى؟ لماذا المكتوب مكتوباً ولا نستطيع أن نغيره؟ أيكون قدرى الطرد من الجنة على الدوام؟ مرة حين هبط أبونا آدم إلى الأرض ومرة حين أفارق المرأة التى لم أحب سواها؟.



ملأتنى هذه الخواطر شجوناً، فعدت أنظرُ للكتاب من جديد أقلّبه.. أين توقفت فى القراءة؟.. ها هى ذى الصفحة.. لحظة حتى أقف تحت هذا المصباح.. فلأكمل ... " لن ترى سوى عائشة سيدة الشاطئ الغربى.. أنا عائشة الشجرة المحرمة التى لا تقاوم رغبتك أن تتذوق ثمارها.. هلمَّ اقترب لأذيقك بعض ثمار الكرز من بين شفتىّ.. تعال... ".

توقفت عند هذا الحد.. كل شئ بهذا الكتاب يحمل رائحة الجنس.. إلا أنه يحمل بين طياته شيئاً آخر.. شيئاً أكثر ظلمة وقتامة و... اللعنة لقد تعثرت واصطدم رأسى بذاك الحجر..

أشعر برأسى تفتت إلى عشرات القطع الصغيرة .

* * *



(الفصل الرابع)

فاطمة

ببطءٍ عاد وعيي للوجود تدريجياً، والظلام الذى أحاطنى يتكشف لتصارحنى الأشياء بحقيقة وجودها منذ الأزل، النجوم يكتنفها الاختناق فيصل ضوؤها خافتاً خانعاً، والبحر مازال يرغى ويزبد محاولاً الفرار من سجنه فيغرق بنى آدم أجمعين، ساعتى تدور عقاربها بتكتكة محببة إلى القلب ومنذرة له فى ذات الوقت أنه لم يعد أمامك كثيراً فى هذه الدنيا، لم أغب عن الوعى طويلاً ربما عشر دقائق أو أقل .. كل شئٍ على ما يرام إذن، الكتاب مازال معى.. أظن أن الوقت قد حان للعودة إلى البيت فلابد أن " ميرفت " قلقة والأولاد ينتظروننى على العشاء، لذا فأنت لن تلومنى، وأنا أستقل أول سيارة أجرة تمر، السيناريو المطروح الآن هو العشاء مع الأسرة، وتبادل بعض الكلمات الفاترة ثم يتوجه كلٌّ منهم لغرفته وستبقى ميرفت تحدقنى بنظرات متسائلة، لكنها لن تسأل وأنا لن أجيبها ثم أتوجه لغرفة مكتبى مع غنيمتى وأوصدها جيداً من الداخل فلا أريد أن يزعجنى أحد هذه الليلة.. هذه الليلة لها وحدها... هكذا تجدنى عدت إلى غرفة المكتب حاملاً كتابى، هيا أقبِل قبل أن أوصد الباب فسأسمح لك أن تشاركنى خلوتى مع عائشة ولكن أرجوك لا تزعجنى فقط أنصت لقراءتى.. فقد بدأت ليلة عائشة.



ثمة ملحوظات فى الحواشى الجانبية لهذه الصفحة مكتوبة بالإنجليزية بخطٍ أنيقٍ ومحددٍ كما لو أنَّ كاتبها واثق من نفسه، يعرف ما يريده تحديداً، من حسن حظى أن عملى كان يتطلب أن تكون إنجليزيتى جيدة لذا فقد استطعت قراءتها، لكن ما قرأته لم يكن معقولاً أبداً .

" أنا بول باكسون (*).. أكتب هذه الملاحظات قبل أن أحرق كل ما توصلت إليه فى بحثى تاركاً الكتاب، وملاحظاتى لمن يقرؤها لعله يسترشد بها فيما سيواجهه قريباً.. والحق أقول أنه لن يسره أبداً، لتعلم أيها القارئ بعدى أن ما سأمدك به من معلومات قد أفنيت فيه عمرى.. الآن حين أسترجع كل ما مر بى أجدنى نادماً ولكن عزائى الوحيد أن ما سأقدمه لك قد يكون سبباً فى نجاتك.. احرص أن تحفظ الكتاب والملاحظات فى مكان أمين لا تصل إليه يد بعدك وأن تضيف تجربتك إلى تجربتى .. وأخيرًا نصيحتى لك أن أدعو إلهك أن ينجيك من هول عظيم.

تحكى الأسطورة عن امرأة حسناء تدعى عائشة قنديشة تفتن الرجال بجمالها وتستدرجهم إلى وكرها حيث تمارس الجنس معهم ومن ثم تقتلهم إلا أنها تخاف من شيء واحد وهو اشتعال النار أمامها، وفي إحدى القصص التي تدور حولها أن



عائشة قنديشة اعترضت مرة سبيل رجال كانوا يسكنون القرى فأوشكت على الإيقاع بهم من خلال فتنتها إلا أنهم استطاعوا النجاة منها خلال قيامهم بحرق عمائمهم أمامها، إذن فالسبيل الوحيد للنجاة منها هو ضبط النفس ومفاجأتها بالنار لأنها تعتبر نقطة ضعفها وكل من تقوده الصدفة في أماكن تواجدها يتعرض لإغوائها فينقاد خلفها فاقداً للإدراك إلى حيث مخبئها من دون أن يستطيع المقاومة وهناك تقتله بلا رحمة.

حين تراها – ولابد لك من رؤيتها – تذكر على الفور أنها قد تكون نهايتك.. اجعل من حذرك صديقاً ومن قوة ملاحظتك سلاحاً.. تحصن بالإيمان مهما كان ما تؤمن به.. ما يهم حقاً أن تؤمن.. تذكر خطاياك بندم، ربما يحالفك الحظ بعد ذلك فتنجو، لا تنطق إلا بالحق، ولا تقل سوى الصدق ولو ظننت هلاكك فيه، وإياك والكذب ولو حسبت نجاتك فيه.. إن أخطأت فى حق أحدهم فاطلب الغفران فحسب.. أعرف أنك ستنسى أو تتناسى كل ذلك لكنك حين يأتى الوقت ستضطر لاتباعه.. لا أعرف ما ستواجهه حقاً لكنى أتمنى لك التوفيق.. وأن تظل على قيد الحياة ".



الآن ماذا ترى ؟.. ضع نفسك مكانى، أكنت ستصدق ما كتبه ذلك المعتوه؟.. إجابة صحيحة يا صديقى، بالطبع لن أصدق.. على أفضل الافتراضات هو مجرد مؤلف أراد أن يضفى رهبة لكتاب يتحدث عن أسطورة امرأة ملعونة، لكن أرجوك لا تقنعنى أنه كتبه بشكل جاد.. الحياة أعقد من أن أصدق هذه التّرهات، وعلى الرغم من قناعاتى تلك إلا أنى لا أنكر أنى ازددت توجساً من هذا الكتاب ومع التوجس اشتعل فضولى أضعافاً مضاعفة وعدت أقرأ من جديد.

" ها أنت اقتربت أخيراً يا صغيرى.. تغلبت على خجلك وحذرك.. أرى شفتيك ترتعشان لهفةً لالتهام شفتىّ بينهما.. جسدك يرتجف... ".

لم أكمل، بالفعل جسدى يرتجف.. روحى تتمدد كأنها بالون ضخم ينتفخ.. تضيق ملابسى، بل تضيق الغرفة كلها كأنها علبة صغيرة.. وأختنق، أحتاج فضاءً يحيطنى، أشعر كأنى نيزك يأبى إلا أن يجوب السماء.. أحتاج أن أتنفس بعمق.. لا أشعر بذلك الشعور إلا حين أتمشى على كورنيش البحر كالمتسكعين، البحر يثير الخيال خاصة بالليل حين يظلم فلا تميّز خط الأفق الفاصل بين البحر والسماء، ولا شك أن هذا الكتاب شحذ تفكيرى وأثار خيالى إلى أبعد الحدود، وبالرغم من إرهاقى وأنى لم تمضِ على عودتى نصف ساعة فقد اتخذت قرارى بالخروج مرة أخرى، لذا خرجت من غرفتى محاذراً أن أحدِث صوتاً يوقظهم، ولم



أنسَ إغلاق باب الغرفة بالمفتاح وأسقطته بجيبى وتوجهت فى طريقى إلى البحر.

متدثرٌ بمعطفى.. متشبثٌ بكتابى.. أنقل خطواتى ببطءٍ وسط ريح لا تهدأ.. وقفت عند ذلك اللسان الممتد داخل البحر فى منطقة جليم.. وعلى حافته يعلن البحر عن منطقة نفوذه.. يهدر ويرعد ويزبد دون توقف.. جلست على صخرة على حافة اللسان وأخرجت الكتاب وعدت أقرأ.

" جسدك يرتجف نشوة قبل أن ترانى.. شفتاك ترتعشان.. الآن تمتم بترانيم حبى.. قل أحبك عائشة فعودى.. تفتحى كزهرة برية.. أشرقى أى أميرة البرارى وسيدة البحار.. إنى أحبك عائشة فلا تتأخرى.. وليقدنى عطرك حيث تكونين ..".

بلا وعى منى وجدتنى أردد تلك الترانيم بانتشاء.. بصوت خافت أولا ثم بدأ صوتى يعلو تدريجياً، وكأنى تحررت من قيدٍ يلجمنى فإذا بى أصرخ.. فرِح وحشى أصابنى كأنى عدت إنساناً بدائياً يصرخ حول النار منتشيًا.. سقطت من التعب، ألهث ككلبٍ فى صحراء وأنا أتساءل: كيف هبت تلك الرياح الساخنة فجأة حتى كدت أظننا فى قيظ أغسطس أم أنه المجهود الذى أشعرنى بالدفء؟.. كالعادة تستيقظ غرائزى حين أقرأ الكتاب لكنى لا أعلم ما الذى جعلنى أتذكرها فى تلك اللحظة؟..

" سمر " .. يظهر وجهها فجأة من بين الذكريات بدلالها وألقها .. كانت أنثى كما يجب أن تكون الأنثى.. كأس خمر تذهب العقل من فرط لذتها.. تدهشنى بأسلوبها فى إرضائى حتى أشعر أن حولى كل نساء الكون.. قطعة سكر لا يسعُها إلا أن تذوب بفمى.. امرأة تعطيك بلا حدود وتطلقك فى سمائها حراً.. تشعر بين أحضانها أنك فحل الميدان.. ذكرتنى ارتجافتى الآن بارتجافتى وأنا أتمرغ فيها.. أحتسيها حتى الثمالة .. أعلوها فتعلونى وأفتت ذراتها بين ذراعى فتنثرنى فوق شفتيها.

تلك كانت " سمر" .. شهوة لا تنطفئ وقلب يحيط بعالمك كله فكأن قلبها دنياك.. كانت فتنتى وغوايتى واحتلت حياتى لسنين.. ولم تستطع امرأة أن تمحوها من ذاكرتى.. إنها الخلود.. تشعر معها بشباب دائم متجدد.. لكن ثمن ذاك الخلود كان فادحاً بحق.. سأمنحك الخلود لكنك ستبقى لى.. تلك كانت صفقتها.. الخلود مقابل الحرية.. لذا لم أرَ الفناء بهذا السوء.. لا شئ يعدل الحرية.. حريتنا فى هذا العالم محدودة.. فقيرة .. لا نختار أسماءنا أو رزقنا.. حياتنا.. مماتنا.. بل إننا لا نختار عملنا أو دراستنا.. لا نختار زعماءنا.. إننا فى بعض الأحيان لا نختار زوجاتنا وأصدقاءنا.. كل شئ فى حياتنا يقتطع من حريتنا جزءً.. فرئيسك فى العمل يغتصب حريتك فلا تجرؤ أن تعترض وإلا وجدت نفسك فى اليوم التالى تتسول.. زوجتك أيضا تأبى إلا أن تغتصب لها جزءً، كيف لا وهى ترى أنك صرت لها فلم يعد لك حتى حرية أن تنفرد بنفسك قليلًا.. كم بقى لك من حريتك؟.. بقى القليل؟! إذن امنح بعضه للحاكم وبعضه



للشرطة وبعضه للناس " عشان مياكلوش وشك ".. ها ماذا بقى؟ .. بقى ذرة من حرية.. أنعم بها يا عزيزى فهى كل ما تبقى لك.. هل يعقل بعد كل هذا أن نفرط فى هذه البقية الباقية مهما كان الثمن؟!.. لذا كان الاختيار صحيحاً مريراً ككل شئ صحيح فى حياتنا.. لم أعرف حتى الآن صحيحاً ليس مراً، فهل أخطأت حين اخترت فراقها؟.. لا أعلم لكنى كلما عرفت فتاة رأيت لسان حالها يقول: الرجال أوغاد يا صغيرتى فلا تمنحيه فرصة أن يستنشق الهواء دون أن تكونى بجواره.. الرجال أوغاد يا صغيرتى فكبِّليهم بأغلال الفقر والحاجة.. الرجال أوغاد يا صغيرتى فاحكمى وثاقهم بالجنس واستنزفيه حتى لا يبقَ منهم سوى العصارة.. هكذا تربى بناتنا وزوجاتنا وهكذا نجد الرجل يختنق تحت ركام العمل المجهد وذل الرؤساء واستضعاف الجبابرة وكيد النساء.

لماذا ضاقت علينا وبنا نساؤنا ؟ أين السكن والمودة والرحمة ؟.. صار كلٌ منا متشككاً متحفزاً ينتظر غفوة خصمه ليعالجه بطعنة غادرة ويعلن نفسه حاكماً عسكرياً لحياتنا.. كيف ومتى فقد الرجل رجولته وشهامته فانقلب وغدا أفاقاً يحتال على المرأة ويستعذب أناتها ؟.. كيف ومتى أضاعت المرأة أنوثتها فى ضجيج المصانع وروتين المكاتب؟ كيف تعرت فكشفت فتكشّفت فانكشفت فأعلنت نفسها جسداً يدعو للجنس؟ متى فقدت أمانها وثقتها برجلها؟.. اللعنة على كل المفكرين.. ألا فليسامحهم الله إن قصدوا خيراً بالمرأة وإلا فأدعو لو كانوا فى قعر جهنم الآن .. حين خرج علينا دعاة حرية المرأة كانت دعواهم أن اكشفى وجهك



لا حرج فإذا بالمرأة تستجيب فتكشف وجهها.. وساقيها.. وذراعيها.. وجزءاً من صدرها.. قالوا للمرأة اعملى . فإذا بها تعمل عشر ساعات وتكرس نفسها لجمع المال كأنها قارون بدعوى أنها تحمى نفسها من غدر الزمان ونذالة زوجها.. قالوا لها خذى حقك لا حرج.. فإذا بها تأخذ حقها ثم تمتد عينها لحقوق الرجل فتستلبها.. اتخذت من قرينتها الأوروبية قبلة وإلهاً.. تأكل مثلها.. تشرب مثلها.. تلبس مثلها.. تصادق مثلها... لكنها ظلت كما هى بداخلها.. مازالت تلك الجارية البيضاء تسبّح باسم الجنس وتأمل فى السيطرة على سيدها بدهائها وجسدها.. مازالت تحلم بعرش حتشبسوت وكليوباترا وشجرة الدر.. مازالت تتجاهل نهايتهن الأليمة.. لأنهن لم يقبلن الأنثى بداخلهن، وتطلعوا لحكم الرجال، فواحدة مُحيَت آثارها ودُمِّرت، والثانية هُزِمت وانتحرت، والأخيرة قُتِلت، فأى شئ جنوه بعد ذلك.. الفتاة التى تتشدق بأختها الغربية وثقافتها الغربية لم تقرأ مثل أختها الأوروبية.. أو تفهم.. أو تسعد رجلها.. أو حتى تتحمل مسئولية شئ ما.

" هل لى أن آخذ دقيقة من وقتك ؟ " .

أفزعنى صوتها الأنثوى.. ففى وقت كهذا ومكان كهذا ظننت أننى الكائن الوحيد على الأرض حتى جاءت هى أخرجتنى من تأملاتى.. الْتفتُّ نحوها، وعلامات الدهشة والحنق تحفر أخاديدها فى وجهى..

" آسفة لم أكن أقصد إزعاجك " .



بخجلٍ تقولها.. برقةٍ تهمسها.. بعذوبةٍ تنظر كأنما يسيل من عينيها نهر من عفوية محببة.. عشرينية هى.. ربما فى الخامسة والعشرين.. لا تتميز بجمالٍ صارخٍ إلا أن سمرتها الممزوجة ببقايا بثور حب الشباب وشفتين غليظتين منفرجتين عن قبلة تتهيأ للانطلاق وعباءتها تلتف حولها فتبرز مفاتنها تارة ثم ترتخى فتخفيها.. كل هذا يجعلنى أُطلِق العنان لنزواتى بلا حساب.. فقط لو أننى أصغر سناً عشر سنوات فحسب، لاحظت نظراتى إليها فجفلت قليلاً وأحمرت وجنتها- كأنما خمنت ما يدور بعقلى-فأضفت لسمرتها حمرة ساحرة أسكرتنى بلا كأس..

" تفضلى " .

بصوتٍ متحشرج نطقتها، وكأنى أخبرتها أنها ستموت بعد دقيقة فإذا بها تتحدث بالسرعة المميزة لمندوبى المبيعات.. بالطبع لم أفهم نصف كلامها، كل ما استطاعت أذني التقاطه كلمات متفرقة عن عطر ما.. شركة أسبانية جديدة.. عرض خاص.. آخر زجاجة معى.

بالطبع تعرضت كثيراً لهذا الابتزاز العاطفى ومحاولات الإغراء الفاشلة أن تشترى منتجًا ليس له مثيل فى الكون بعشرة جنيهات فقط.. إلا أننى لم أستطع أن أردها خائبة.. لا أعلم هل لأنى وقعت تحت تأثيرها؟ أم عدم هضمى لفكرة أن فتاة مثلها تجوب الشوارع ليلاً معرضة نفسها لكل أنواع الخطر.. ترى كم تساوى عشرون جنيها أمام حياة فتاة أو مستقبلها؟.. لذا لم أتردد كثيراً واشتريت منها زجاجة العطر



المفعمة بالكحول، تشممت الزجاجة بعمق.. عجباً لها رائحة غير تقليدية.. شئ ما يسلبك روحك وتحلق فى أجواء غير منظورة.. كما أنه يبدو لى عطراً فاخراً.. التفت أبحث عنها لأسألها عن كنه هذا العطر لكنها كانت قد اختفت.. أخذت أتفحص العلبة بتركيز، بالفعل لم تكن من إنتاج أى من الشركات المعروفة.. حتى اسمها كان غريباً .. فبحروف ذهبية ملتوية كُتِب اسم العطر.. كان اسمه

الكونتيسة　　　*la countess*

* * *

" متى ينتهى كل ذلك يا ربى ؟ ".

هكذا قالت فاطمة فى نفسها وهى تسترجع سنين عمرها التى اقتربت من الثلاثين بدون زواج فى مجتمع لا يرحم أى فتاة طرقت باب الثلاثينات أو طلقت فى العشرينات، أو أو أو، المهم أنه لن يرحمها أبداً .. ها أنا ذا انتهيت من بيع آخر زجاجات العطر لحساب تلك الشركة التى أعمل بها، غداً سأسدد ثمنها بالشركة أما الآن فلابد لى من العودة للبيت، أعلم أنى تأخرت لكنهم كالعادة سيكتفون بتأنيبى تأنيباً لا فائدة منه فى الحقيقة، فهم يعلمون أين كنت وماذا أفعل.. كل ما هنالك أنهم يريدون أن يشعروا أنهم آباء حازمون يرفضون أن تعود ابنتهم فى وقت متأخر، لا يهم لقد تعودت ذلك منذ زمن.. الآباء والأمهات يتظاهرون فقط، يتظاهرون أنهم ربونا كما ينبغى، وأننا ملائكة تُسبّح بحمد الله.. يتظاهرون أنهم صارمون حازمون، إنهم فقط يحافظون على هيبتهم



أمامنا، تلك الصورة المرسومة فى أذهانهم عن سلطة الأب الكاسحة وحنان الأم الجارف.. هم فقط لا يعلمون أننا نعلم أنهم يتظاهرون، الأمر يبدو كعرضٍ مسرحى؛ فالأب يعلم أن ابنه المراهق يدخن لكنه يتظاهر أنه لا يعلم، والمراهق يعلم أن أباه يعلم لكنه يحرص أن يتخفى منه، كل منهما يلتزم بدوره المرسوم له ولا يحيد عنه حتى لا يفشل العرض وحينها يضطر الأب أن يمثّل أنه الأب الصارم.. تعلمت منذ زمن أن أقف عند الدور المرسوم لى وأشاهد أدوار الآخرين فى صمتٍ بل وأحياناً أصفق لها. لكنى فى طريق عودتى أحسست أن أحدهم يراقبنى، توقفت أمام سيارة وتظاهرت أننى أعدّل من حجابى – الذى لا يقنعنى أنا نفسى – واختلست النظر خلفى، عجباً إنها امرأة تبدو فى الثلاثين، وهى ثرية أيضاً.. وجدتها تقترب منى وصوت كعبيها يشق الصمت.. توقفتْ أمامى ونفثتْ دخان سيجارتها الرفيعة وهى ترمقنى بثبات ثم قالت :

- ما رأيك بعمل إضافى بدخلٍ عالٍ ؟.

- مَن أنتِ ؟.

- لا يعنيك كثيراً.. فقط أجيبى بنعم أم لا ؟.

- هذا يتوقف على العمل نفسه.

- هو نفس عملك ستبيعين زجاجة عطر واحدة.. الآن وستأخذين مبلغاً محترماً.. ماذا قلتِ؟.

- الآن ؟! الوقت متأخر و ... .



- الآن أو لا للأبد.. زجاجة واحدة فقط.. الأمر كما ترين عمل بسيط ومعتاد ومشروع.. ومجزى أيضاً.. اعتبرينى ثرية حمقاء أرادت أن تساعدك بطريقتها.

- حسناً هاتيها.

- لكن لى شرط .. يجب أن تبيعها لرجلٍ ناضج.. لا شباب .. لا أطفال.. لا نساء.. وأن يكون على البحر الآن.. هذا شرطى الوحيد.

- موافقة.

- بالمناسبة ما اسمك يا صغيرتى ؟.

أحنقنى أن نادتنى بصغيرتى ففارق السن بيننا ليس كبيراً إلى هذا الحد كما أنها رفعت التكليف بعد دقيقة من حديثنا.. هذه المرأة لا تضيع وقتها أبداً.. لذا أجبتها والحنق يسيل مع حروف كلماتى:

- فاطمة.

تعجبت من شرطها هذا وربما أحسست أنها تتعمد تعجيزى إلا أنها أعطتنى العطر ومبلغاً ربما يزيد عن ألف جنيه.. العطر أيضاً يبدو فاخراً ولا يحتاج هذا النوع من التسويق الذى أجيده.. بل يحتاج فتاة عارية تتلوى فى التلفاز ليصبح رائجاً.. كما أن اسمه لم يكن من العطور التى أعرفها سواء المشهور منها أو الردئ الذى أبيعه.. كان اسمه الكونتيسة. تابعت سيرى فى طريقى للكورنيش من جديد. بدا لى مهجوراً فى مثل هذا الوقت. ترى أى رجل سيجلس الآن ليستجم؟ المهم أن أحاول. إن ألفاً من الجنيهات مقابل زجاجة واحدة لأمر يستحق. أنهكنى



السير طوال اليوم، وعاد حلمى بالارتماء فوق سريرى يراودنى فوقفت ألتقط أنفاسى وأسلّى نفسى ببعض الحقد على أصحاب السيارات الفاخرة التى تمر دون أن تعبأ بفتاة مثلى، وحين التفت أتابع إحدى السيارات لمحته.. جالساً متفرداً، أكاد ألمح البؤس يرسم خطوط جلسته، ولكنه فرصتى ولن أتركه بسهولة، فليشترها بأبخس ثمن فقط يشتريها لا يهم الثمن، أحسست بالنشاط يدب بأوصالى من جديد، إنه نشاط مَن يوشك على الخلاص.. جريت ناحيته، يبدو أنه لم يشعر بى لذا نبهته قائلة :

- هل لى أن آخذ دقيقة من وقتك ؟

أحسست أنى أفزعته، ربما كان مستغرقاً فى التفكير.. كل الرجال مستغرقون فى التفكير دائماً.. ما الجديد إذن؟.. كلهم يحمل هموم الكون فى حجرات قلبه الأربع حتى لا يبقى مكانًا عندهم للحب.. أعتقد كثيراً أن الرجل خُلِق ليحمل هموم العالم ولكننا أبينا – معشر النساء – إلا أن نشاركهم لا بدافع العون والسند وإنما بدافع الغيرة والتنافس.. فازدادت همومهم وهمومنا حتى صاروا كقوافل البدو يقطعون الصحارى بلا حتى نبتة صبار أو قطعة قماش مبللة.. أسرعت بالاعتذار خاصة أن ملامحه كانت تشى بالضيق.. وكما تعرفون فأنا لا أود أن أخسر عميلاً مثله..

- آسفة لم أكن أقصد إزعاجك.

عيناه تتحسسانى.. نعم تتحسسانى.. أقسم أننى شعرت بنظرات عينيه فوق جلدى، بل شعرت بها كأنها تتلمس روحى ذاتها، ليست نظرة اشتهاء حيوانية أو ازدراء أو حتى نظرة عملية.. بل بدت كنظرة راهب تغويه الغانية فهو يستسلم حيناً ثم يتمالك نفسه حيناً.. أربكتنى نظراته المتفحصة فأجفلت قليلاً لكنى لم أبتعد.. حين تعمل الفتاة فى ترويج المنتجات فهى لا تبيع سلعتها فحسب.. بل تبيع نظرتها وابتسامتها، تبيع الشفقة على هذه الفتاة المسكينة فى هذا الزمن " الأغبر" الذى يضطرها للعمل .. إنها تبيع كل شئ لكل الناس.. تبيع نظراتها وابتسامتها للأوغاد ولكنها تعرف متى توقفهم عند حدودهم وتبيع رجولة وشهامة لا تجد متنفساً لها إلا فى الشراء من فتاة مسكينة تكافح من أجل لقمة العيش، وهى بذكائها تعلمت أن تصنّف زبائنها من النظرة الأولى فتعرف إن كان وغداً أو شهماً، لكن هذا الرجل بالذات حيرها.. بدا لها وغداً عنده شهامة أو شهم يحاول ترويض الوغد بداخله.. وأخيراً يبدو أنه قرر الشراء منها بدافع الشهامة.. وما أن أتمت صفقتها حتى انطلقت بأقصى سرعتها إلا أنها قبل أن تنصرف لمحت ذلك السؤال فى عينيه وهو يدفع لها ثمن العطر.. كان يسألها " ما الذى أجبرك على هذا ؟".. كادت ترى لسانه ينطق بالسؤال لكنه لم يفعل.

ما الذى أجبرنى على ذلك ؟! يا لك من ساذج.. وهل كان أمامى حل آخر؟.. فى مجتمع ينبذك لأنك وصلت لسن الخامسة والعشرين بلا زواج فتصبح عانساً.. بين أوغاد لم يروا فىَّ سوى فريسة سهلة وفرصة



للتسلية.. لا أعلم السر الذى يجعلنى أجذب الأوغاد إلىّ بلا توقف.. وكأننى أعلّق على ظهرى يافطة مكتوبًا عليها " تصلح لاستغلال الأوغاد " أو شيئًا من قبيل " للأوغاد فقط ".. أو " يحفظ بعيداً عن متناول الرجال " .. كم وغداً عرفت ؟!.. عندما يكثر العدد تتوقف عن العد بعد رقم عشرة.

ما الذى أجبرنى على ذلك ؟! يا لك من ساذج .. وسط أسرة تتهمك بلا دليل لأنها تعتقد أنها إن لم تتهمك زوراً فسيأتى اليوم الذى تضطر فيه أن تتهمك حقاً.. إنه مبدأ جحا العتيد حين ضرب ابنه حتى لا يضيع المال قائلاً الآن الضربة ستوجعه فيحرص على المال أما إذا أضاعه فماذا أفعل بضربه.. حين تصبح متهماً محاصراً مقهوراً فلا تسألنى من فضلك كيف وقعتى فى حب ذلك الوغد وأنتِ تعلمين أنه وغد؟.. فقط كنت أشعر بإنسانيتى معه.. كنت أشعر أنى حرة فى اختيارى وإن كان خاطئاً وأنى مرغوب فىَّ حتى ولو كذباً.. فقط حين تُقهَر إنسانيتنا نصبح أكثر استعداداً للخطيئة.. الحرية هو ما نطلب لا التحلل.. الثقة لا التمرد.. التفاهم لا الانقلاب.. نحتاج أن تحتوينا أسرنا.. مجتمعنا.. أحباؤنا.. لا نريدها حرباً.. أيها الرجال لم نعد نثق بوعودكم فلم نعد مصدر راحتكم.. أيها الرجال فقدنا منكم الأمان وصار الخطر منكم.. فقدنا أنفسنا فى محاريب رجولتكم الحمقاء وتعنتكم الأبله وطفولتكم البغيضة وفرض سلطاتكم بلا حدود وبلا مراعاة لنا، ورغم ذلك لم نجد عندكم كلمة طيبة أو همسة حب.. فلا تتشكّوا إذا تنمرنا وكشرت الأنوثة



عن أنيابها.. ولا تصرخوا أننا فقدنا أنوثتنا ونطمع فى ملك الرجال.. نحن تطلعنا إلى ملك الرجال حين لم نجد رجالاً لتملك.

جالسٌ على حاسوبه الخاص يتحدث مع بعض الفتيات عبر أحد برامج الدردشة الشهيرة.. تمتد ابتسامته من الأذن للأذن التى لا نراها فى وجوهنا أبداً.. هذا أخى.. مراهق فى الثامنة عشر من عمره، جعله أبى وأمى سوطاً على ظهر.. يجلدنى حين يُرهقا هما من جلدى.. التفت ناحيتى حين أحس بدخولى ورأيت وجهه يتحول كما يتحول مصاصو الدماء والمذؤبون فى الأفلام الأمريكية.. هل تعرف ذلك التأثير حين تحمر العينان وتنقلب السحنة وتبرز الأنياب؟.. كان هذا أخى.. أخى الذى لم يعرف شيئاً عن الحياة بعد سوى أن يأخذ مصروفه، ويحادث الفتيات و..... ويقهرنى، لن أحكى لكم عما فعله.. لن أحدثكم عن مشجاراتنا التى لا تنتهى.. ودائماً أنا المخطئة.. أنا مَن استفزه.. أنا التى ضيقت ملابسها.. أو كحلت عيونها.. أو عدت من عملى متأخرة كما الآن.. أنا الخطأ يمشى على قدمين.. أتعرفون ؟!.. لن أحكى لكم شيئاً.. لأن أخى ليس الوحيد أو الفريد.. إنه بداخل كل بيت من بيوتنا.. إنهم إخوتنا يا سادة.. أيتها القوارير أفقن .. أفقن ولا تحلمن بفارس فوق جواد أبيض.. انسين أمير سنوايت.. فالآن.. صرنا قوارير فى حانوت رجل سكير.. يتخبط بين الجدران فيكسر بعضنا.. والباقى ينتظر الانكسار.

- هل عدتِ يا فاطمة ؟



كان هذا صوت أبي ينادينى من غرفته ليتأكد أننى عدت، فأجبته وأنا أتجه ناحية الغرفة بقلق، فقد أضطر لمشاهدة أحد أدوار الأبوة الصارمة، فوقفت عند الباب وأنا أرسم على وجهى أقصى علامات الشعور بالذنب والندم قائلة :

- نعم يا أبى، عدت للتو.. آسفة على تأخرى فقد كان عندى عمل لا يمكن تأجيله.

أجابنى برقة لم أعهدها منه عادة فى مثل تلك المواقف مما أجج جذوة القلق بداخلى وقال :

- لا بأس يا ابنتى، تعالى اجلسى بجانبى، فأنا أود طرح أمر ما عليك.

- نعم يا أبى .. تفضل فكلى آذان صاغية .

سعل قليلاً ريثما يمتلك ناصية الحديث وقال :

- محمود جارنا فاتحنى فى رغبته فى الزواج بك، وأنا أراه شاب جيد وعلى خلق.. فما رأيك؟.

وقع عليّ الخبر كالصاعقة.. فمن ناحية كنت قد تناسيت منذ زمن أنه من الممكن أن يتقدم لخطبتى أحد، ومن ناحية أخرى لم أتوقع أن يكون الذى سيتقدم لخطبتى هو محمود .

- ولكن يا أبى محمود لم يكمل حتى تعليمه بينما أنا حصلت على الشهادة الجامعية (البكالوريوس)، وتخرجت فى كلية العلوم، لا أظن أننا نستطيع أن نتفاهم .



تجاهلت نظرة أمى المستنكرة الغاضبة ولسان حالها يقول لم نرَ طبيباً ليتقدم لك ورفضناه وعدت ألتفت ناحية أبي الذى قال :

- يا بنتى، محمود شاب جيد ولا شيئًا يعيبه، فماذا فعل الجامعيون بشهاداتهم؟!.. بينما محمود يكسب فى الشهر ما لا يقل عن خمسة آلاف جنيه، كما أنه على خلق.. وأنتِ كما ترين تأخر بك الزواج وربما يكون محمود آخر فرصة جيدة لكِ .

اختنق صوتى وأنا أكاد أبكى قهراً وقد ترقرقت عيناى بالدموع وقلت:

- حسناً يا أبى دعنى أفكر.

التفتت لى أمى وقد احمرّت عيناها غضباً :

- فيم ستفكرين ؟.. أيعجبك بقاؤك هكذا بدون زواج؟.

تجاهلت أمى للمرة الثانية وإن لم أستطع أن أمنع تلك القبضة الباردة من أن تعتصر قلبى وجعلت صدرى يضيق حتى كادت ضلوعى أن تتكسر وقلت بصوت مختنق :

- سأفعل يا أمى .. سأفعل ما تريدون .

ثم قامت متجهة لحجرتها وألقت بنفسها فوق السرير وأطلقت لدموعها العنان، فلم تعرف كم مضى عليها من الوقت وهى تبكى قبل أن يعالجها النوم بقبلته الحانية، ولكنها تذكر ذلك السؤال الذى تردد فى عقلها قبل أن تنام .. " متى ينتهى كل ذلك يا رب ؟ " .

* * *



(الفصل الخامس)

استدعاء

" فلتحمل الرياح عطرى إلى أقصى الأرض.. املأ به صدرك أيها الغريب وانتشى.. هذا عطر عائشة فلا تتمهل.. فليقدك عطرى حيث أكون ولتكن أنت سلوتى هذه الليلة.. أنت لا تعلم مَن أنا لكنك لن ترفض دعوتى.. تعال واسترح قليلاً من عناء سفرك الطويل.. تعال لأظلك فى واحتى وتضع خدك بين كفى وتنام عسى أن تصحو فى عالم أفضل.. هيا ولا تتمهل.. عائشة قنديشة لا تحب الانتظار".

تناولتُ زجاجة العطر بحرصٍ متأملًا صفرة السائل بداخلها وهو يترقرق تحت أضواء المصابيح.. ضغطت بسبابة مرتجفة مطلقاً بعض قطراته على ظهر كفى وقربته من أنفى أتشممه.. عطر غريب بالفعل.. تشعر كأنهم قطّروا أثير الكون فيه.. له رائحة تشبه رائحة عذراء تستحم فى ضوء القمر مرتدية فستاناً من الياسمين مخلوط بزهر البنفسج والأقحوان، العجيب أنه رغم اسمه النسائى – الكونتيسة – إلا أنه عطر محايد يصلح لكلا الجنسين، أخذت أضمخ به نفسى حتى أحسست أننى أكاد أغرق فيه.. حالة الانتشاء بدأت أستشعرها أعادت لى كل



ذكرياتى الحميمة.. نادرة.. سحرها.. أناقتها.. ضحكتها.. حتى عندما كانت تتنمّر وتريد أن توحى لى أنها سوقيّة و أنها ليست تلك الفتاة الرقيقة التى أحسبها كانت تبدو فاتنة، تذكرت سمر أيضاً الحب المشبّع بالرغبة والتنطع.. كنت معها كهرٍّ فارسى سخيف، أقصى مجهود يبذله أن يتملظ ليل نهار مستلقياً فى حِجر صاحبته متمتعاً بمداعبتها له وتدليلها له – بالمناسبة فى كثير من الأحيان أظن أن مَن يربون مثل هذه الكائنات يعملون عندهم بلا أجر كأنهم هم العبيد والحيوانات هى السادة – وتمسح على رأسه برفق، ينظف فراءه السميك.. ونظرة الرضا تلتمع فى عينيه العسليتين.

أتذكر أيضاً أعوام دراستى.. أساتذتى.. قاعات الدراسة.. أصدقائى.. النشوة التى تجتاحنى كلما رأيت نظرات الإعجاب فى عيونهم، تمرُّ " ميرفت " زوجتى وسط الذكريات وتتوسطها.. الهمسة الأولى بيننا وحياؤها.. كانت رائعة هذا اليوم، تلتمع عيناها فرحة تكاد تندفع نحوى تعانقنى لولا أن تتدارك نفسها.. اللمسة الأولى بيننا حين احتضنت كفها فى يدى.. القبلة الأولى.. ثم الزواج، تطوف بذهنى كل حبيباتى اللواتى عرفتهن فى حياتى.. كلهن رأونى فارسهن فى الغرام.. كلهن رأونى قيساً متيمًا.. لكنى – رغم زحامهن – كنت قيساً بلا ليلى.. لم أعد أتذكر أغلبهن لكنى أحتفظ بالوجوه فى ذاكرتى كألبوم اصفّرت صوره فاتخذت ذلك اللون الزيتونى الموحى بالقِدم.. غشت وجهى ابتسامة خفيفة ونفضت عن رأسى ما علق بها من ذكريات وتأملت زجاجة العطر فى يدى للمرة



الأخيرة قبل أن أعيدها إلى علبتها، أدخلتها برفق حتى منتصفها لكن ثمَّ شئ ما بالعلبة منعنى من إكمال إدخالها.. لا يبدو صلباً إلى هذا الحد.. أعدت إخراج الزجاجة وتفحصت العلبة ملياً فوجدتها بطاقة يبدو أنها وضِعت بجوار الزجاجة فلم أنتبه إليها منذ البداية.. أخرجتها برفق مدققاً النظر فيها، بطاقة بريئة المنظر، مزينة الحواف بإطار مذهّب بزخارف نباتية، ذكّرتنى فى الحال بزخارف الدولة الفاطمية وعمارتها.. أمعنت النظر فيها؛ فقرأت ما كُتِب فيها بخط مزخرف :

وصار العطر يغمرنى..
زاد حلو المعيشة..
والليل يسدل ستوره..
على العاشق ل " عائشة "..

ما بال هذه ال " عائشة " التى تطاردنى منذ وجدت الكتاب المشؤوم.. لو كنت أكثر إيماناً بالخزعبلات لقت أن فى الأمر لعنة ما تطاردنى.. فخ محكم يُنصَب حولى.. لكنى لا أهتم بهذه الترهات.

ألقيت البطاقة بحنق داخل العلبة فلمحت شيئاً مكتوبًا على ظهرها سرعان ما اتضح أنه رقم هاتف ما.. ترى ماذا سيفعل فضولىٌّ مثلى حين يجد رقم هاتف مجهول فى بطاقة غامضة داخل علبة عطر مريبة؟!.. أهنئك على ذكائك.. بالتأكيد سيفعل الشئ الوحيد الذى يبدو له منطقياً فى هذه الحالة ألا وهو الاتصال بالرقم.. وهذا ما حدث .



دق جرس الهاتف مشعلاً فضولى أكثر مما تحتمل أعصابى، وتأخر الرد كثيراً حتى كدت أيأس وأتجاهل الأمر تماماً مكتفياً بخيبة الأمل، ولكن يبدو أن القدر كان يدخر لى ما هو أسوأ.. ففى اللحظة الأخيرة أجاب صوت أنثوى ناعم قضى على البقية الباقية من اتزانى النفسى قائلة :

- مرحباً حبيبى .

شئ ما بلهجتها أنبأنى أنها ليست مصرية.. تلك لهجة تبدو من بلاد المغرب العربى.. تونس أو الجزائر مثلاً.. لا تتحذلق أرجوك متسائلاً : وما أدراك بهذه اللهجات؟!.. فقد أمضيت أعوامًا من طفولتى فى إحدى البلاد العربية وكان لنا جيران من تونس والمغرب.. ولكن العجيب فى الأمر أنها تدعونى حبيبى، فهل هى فتاة عابثة إلى هذه الحد أم تراها تظننى شخصًا ما تنتظر أن يحادثها.. يبدو أنى غرقت فى خواطرى وأطلت الصمت لأنها رفعت صوتها من جديد قائلة :

- حبيبى.. لماذا لا ترد ؟.. انتظرتك كثيراً.

- إحم.. أنا.. أنا.. يبدو أنكِ قد أخطأتِ الرقم، فلست ذاك الشخص الذى تريدينه.

- بل هو أنت.. افتقدتك كثيراً.

- عفواً، ولكن هل تعرفيننى ؟!.

- أعرفك دون أن أعرفك.. وأحببتك قبل أن أعرفك.



- لا أفهم ما تقولين ولا وقت لدىّ للعبث.. أرجو أن تخبرينى أو أنهى المحادثة حالاً.

أجابت بضحكة عابثة طويلة أثارت حنقى وأشياءً أخرى أخجل عن ذكرها وقالت:

- لا تكن سريع الغضب يا حبيبى.. أنا قادمة إليك فى الحال وحينها ستعلم كل شئ.

- تأتين؟.. أين ؟!.

- حيثما تقف الآن.. صف لى أين أنت وسأمر عليك بسيارتى.

الحق أنها مجنونة ولا شك فى عبثها.. كما أن الأمر لا يخلو من الخطر.. فمن يضمن لى أنَّ كل هذا ما هو إلا خدعة كبرى للإيقاع بى فى محاولة احتيال كبرى أو حتى سرقة بالإكراه... لا أمان هذه الأيام.. ولكن مم أخاف وأنا لا أملك سوى بضعة جنيهات بمحفظتى وساعتى التى أهدتها لى زوجتى منذ ما يقرب من عشرين عاماً؟ كما أننى أضعف كثيراً أمام المجهول.. فقط المجهول هو ما يثيرنى فى هذا العالم الملئ بالملل، حينها تمتلئ عروقى بالأدرينالين – ذلك السائل السحرى – الذى يحوّلك فى لحظات إلى رجل خارق.. أنتشى.. أشعر حينها أن التجاعيد تختفى، عيناى تستعيدان ذلك البريق الذى كان.. أغدو شاباً يتدفق قوة وحماسة.. لذا لم أتمالك نفسى وأخذت أشرح لها المكان الذى أقف فيه بدقة وأنهيت المكالمة منتظراً إياها.. دقائق معدودة ويتضح لى أمر هذه الليلة التى تشبه ليالى ألف ليلة وحكايات شهرزاد.. أتخيلها – أى



شهرزاد – تجلس عند قدمي شهريار الذى يبدو مضجعاً على جانبه الأيمن متطلعاً إليها بلهفة ذاهلاً عن جمالها بحكاياتها، مصغياً لها وهى تقول :

" بلغنى أيها الملك السعيد أن رجلاً من أهل المحروسة يدعى "ناجي المنصورى" قد اشترى كتاباً عن جِنِّيَّة من بلاد المغرب تدعى عائشة قنديشة، ومنذ تلك اللحظة وهو فى عجبٍ وحيرةٍ، وتغيرت حياته من النقيض إلى النقيض.. فبعد أن اشترى الكتاب وودّع صديقه، ذهب إلى شاطئ البحر وهناك اشترى زجاجة عطر غريبة.. وإذا بداخل العلبة ورقة كتب عليها رقم هاتف ما".

هنا لم أتمالك نفسى من الضحك شهرزاد تحكى لشهريار عن رقم هاتف فى عصر كان الحمام الزاجل هو قمة التكنولوجيا عندهم..

- ما الذى يضحكك إلى هذا الحد؟.

قاطعنى صوت أنثوى من الخلف.. فالتفت ناحيته بسرعة.. ورأيتها.. امرأة ثلاثينية ترتدى تنورة تصل بالكاد إلى ركبتيها وقميصًا نسائياً أبيض اللون وقد فتحت الزر الأعلى حتى يكاد نهداها يطلان منه.. لها ذقن مدببة يشقها طابع الحسن فى منتصفها، وشفتان طُليَتا بالقرمزى.. أنف صغير حاد وعينان لوزيتان واسعتان يظللهما حاجبان كثيفان مصبوغان بلون بنى داكن.. لم تكن امرأة.. كانت فتنة.

متجاهلاً الرد على سؤالها قلت :

- من أنتِ ؟

تألقت عيناها بشدة، وعلّقت ابتسامة ساخرة على شفتيها القمزيتين:

- أحقاً لا تعرف أم أنك لا تصدق ؟.

بدهشة أجبت:

- ومن أين لى أن أعرف؟! .. أظنها أول مرة أراكِ فيها.

- إذن أنت لا تصدق.. أنت فى أعماقك تعرف من أنا.. صدقنى يا ناجى.. ينقصك فقط الإيمان أنك تعرف.

- لا أحب المراواغات، أريد إجابة محددة على تساؤلاتى.. من أنتِ؟

- أنا هى يا ناجى.. أنا عائشة .. عائشة قنديشة .

ورسم الذهول لوحته فوق ملامح ناجى ولكنه لن يكون الشعور الوحيد الذى سيرسم فوق ملامحه.. فما زال الرعب لم يرسم لوحته بعد.

* * *

أى جنون هذا ؟!.. عائشة مَن؟!.. فحتى هذه اللحظة لم يعد الأمر أكثر من مجرد كتاب غريب اشتريته ولكن ها هو الأمر يتحول لشئ جدى يثير الجنون.. من هذه المرأة ؟!.. وكيف تدعى أنها عائشة التى يتحدث عنها الكتاب؟ .. أتراها لمحت اسم الكتاب فأرادت أن تداعبنى دعابة سخيفة..

- عائشة قنديشة ؟!

نطقتها هامساً حتى أننى لم أتبين صوتى أو ربما هو لم يخرج من حنجرتى بالأساس إلا أنها أجابت ساخرة :



- فى خدمتك يا سيدى.

- ولكن كيف؟! .. المفترض أنها مجرد أسطورة ؟.

ضحكت ساخرة وقالت:

- هل تعتقد هذا حقاً؟.. هل تعتقد أن عائشة مجرد امرأة أسطورية عاشت فى زمن ثم انتهى أمرها؟.. أنت واهمٌ يا صغيرى.

- حسناً أيا كنت.. ماذا تريدين؟.. ما قصتك؟ .. لماذا تتبعيننى؟

- أعرف أن لديك أسئلة لا حصر لها، ولكننا لن نناقشها هنا أليس كذلك ؟

- أين نناقشها إذن ؟

- تعال معى وستعرف .

- إلى أين ؟

- إلى حيث تجد إجاباتك .

قالتها واتجهت ناحية سيارتها، فتوقفت برهة أفكر فى الأمر.. أأتبعها أم أنسى الأمر برمته؟!.. ولكن هل سأتحمل أن أقضى عمرى كله أتساءل عن كنه هذه الليلة وماذا كان سيحدث إذا تبعتها.. الفضول قتل القط حقاً ولكنى أفضل أن أموت مشبعاً فضولى على أن أحيا دون فهم.. لذا فقد تبعتها راكباً بجوارها فانطلقتْ دون أن تنطق بكلمة وكأنها كانت واثقة أنى سآتى فى نهاية الأمر مهما بلغ ترددى.

لم تكن المسافة طويلة من منطقة جليم حيث انطلقنا إلى المكان الذى توقفنا فيه، فقد وجدتها تهبط من سيارتها أمام تلك الفيلا



الشهيرة أمام كوبرى استانلى.. تلك الفيلا التى يعرفها كل السكندريين منذ أن هجرها الخواجة استانلى وبقيت بعده مهجورة لم يسكنها أحد ولم نعرف السبب قط.. أخرجت من حقيبتها مفتاحاً يبدو عليه القدم ثم قالت :

- تعالَ ادخل .

لم أعرف لم تذكرت كل قصص الرعب التى قرأتها عن مصاصى الدماء والتى يجب أن تدعوه فيها للدخول إلى بيتك بمحض إرادتك الحرة، وإن كان الوضع هنا معكوساً.. فأنا الذى يجب أن أقبل دعوتها بمحض إراداتى الحرة.. وقد فعلت ودخلت، عند دخولك الفيلا للوهلة الأولى ستشعر أنك عدت إلى زمن ما قبل ثورة يوليو.. صالة كبيرة مزينة بتماثيل يونانية الطابع، وفى نهايتها سلم يقود للطابق العلوى وينقسم فى منتصفه ليقود لسلمين أحدهما يقود للجناح الأيمن للفيلا والآخر للجناح الأيسر منها.. الغريب أن جدران الصالة قد زينت بلوحات لنساء كلهن فى بداية الثلاثينات، وكلهن يشبهن بعضهن البعض ولكنهن لسن نفس المرأة، أما اللوحة الأخيرة فقد كانت لتلك الفتاة التى صحبتنى إلى هنا والتى تقول أنها عائشة.

- مَن هؤلاء؟.. سألتها وأنا مازلت أتطلع للوحات.

- هؤلاء أسلافى .

- أسلافك من؟.. وهل انعدم الرجال فى أسلافك؟.. قلت جملتى الأخيرة بسخرية واضحة فنظرت لى بصمتٍ ثم قالت :



- ستعرف فى حينها.. أما الآن فيجب أن تأخذ واجب الضيافة.. أم تظننى بخيلة ؟!.

اتجهت ناحية البار، وصبت كأسين من زجاجة تشبه زجاجات الخمر عصيراً أحمر اللون ثم أخرجت طبق فاكهة من الثلاجة وقدمته لى، نظرت لها والشك يطل بقوة من عيناى..

" تحكى الأسطورة عن امرأة حسناء تدعى عائشة قنديشة تفتن الرجال بجمالها وتستدرجهم إلى وكرها حيث تمارس الجنس معهم ومن ثم تقتلهم".

فضحكتْ وقالت :

- لا تقلق ليست خمراً.. هذا مجرد عصير توت طبيعى مستورد من فرنسا.

قالتها وقامت تحضر لى الزجاجة فتمعنت فيها بعناية وتأكدت من صحة كلامها، ورغم ذلك فقد قربت الكأس من أنفى أتشممه متبعاً غرائزى الحيوانية الأولية التى تجعل أى كائن يتشمم طعامه قبل أن يأكله ثم تذوقته بطرف لسانى، ولمَّا أيقنت أنه مجرد عصير بالفعل بدأت أشربه بارتياح، ضحكت لفعلى ثم تناولت كأسها، وشرعت تشربه هى الأخرى وترمقنى بطرف عينيها وقالت :

- أهلا بك فى بيتى المتواضع رغم أنك حذر أكثر من اللازم يا ناجى.



لم أعلق على كلامها وأنا أفكر فى كل ما حدث وما قد يحدث.. تجاهلتنى وتناولت (ريموت كنترول) من جانبها ووجهته ناحية التلفاز وقالت :

- هناك شئ أريدك أن تشاهده .

أضاءت شاشة التلفاز وسرعان ما اتضحت الصورة المرتسمة عليها.. الصورة التى جعلتنى أعتدل فى جلستى وأشحذ انتباهى.. فقد كانت تلك صورة منزلى، كان المشهد يظهر المنزل من بعيد ثم يقوم بتقريب المشهد ببطء بخاصية (الزووم) وبقى المشهد ساكنًا لحظات قبل أن ينهار المنزل فجأة بلا مقدمات وكأن قنبلة انفجرت فيه، انتفض جسدى بشدة ونظرت نحوها فوجدتها تدخن سيجارتها بهدوء يثير الغيظ.. قمت من مكانى صارخاً :

- ما الذى يعنيه هذا ؟.

- كما ترى.. منزلك انهار.. ولكن اطمئن زوجتك والأولاد بخير.

- اللعنة عليك.. هذا ليس حقيقيًا.. كان خطئى منذ البداية حين تبعتك.

قلتها واتجهت ناحية الباب متجاهلًا ضحكتها وفتحت الباب و..

- ما هذا ؟

فقد كان أمامى ظلامٌ دامسٌ.. بل قل كان فراغاً مخيفًا.. لم يعد هناك كورنيش أو مبانٍ أو أى شئ .. فقط الفراغ يحيط بكل شئ..

قالت وهى ما تزال تغالب ضحكها :



- ألم تفهم بعد؟!.. طريقى له اتجاه واحد.. لا سبيل للعودة الآن.. لقد دخلت بمحض إرادتك الحرة.

أمسكتُ ذراعها بقسوة وقلت:

- هراء.. أنت ستخرجيننى من هنا.. حالاً .

هل احمرت عيناها حقا؟ أم أنه يخيل إلى من فرط الألم الذى أصاب يدى.. فبمجرد أن انتهيت من جملتى الأخيرة حتى شعرت وكأن نارًا اشتعلت بيدى أجبرتنى أن أفلت يدها ولكن هذا لم يوقف الألم من أن يصل إلى مخى ليذيبه.. وبعدها لم أشعر بما حولى وسقطت فاقداً الوعى.. لذا لم أسمعها وهى تقول :

- من كانت عائشة سكنه فلا سكن له سواها.

❊ ❊ ❊



(الفصل السادس)

أشياء لا تفسير لها

"انهيار عقار بالإسكندرية واختفاء مالكه فى ظروف غامضة" .

الزوجة : زوجى لم يكن على ما يرام فى الفترة الأخيرة .

تفاصيل الخبر......................

ليس من عادة محمد جمال المحاسب بشركة مياه الإسكندرية قراءة الصحف، فهو يعتقد أنها إما كذب أو تضليل أو سفاهة وهو لا يحب أيًّا منها لذلك لم يره أحد يقرؤها.. وكثيراً ما ترى عليه علامات القرف والاشمئزاز حين يتكلم أو يسمع خبراً له علاقة بالسياسة.. ليس لأنه جاهل لا سمح الله أو لا يهتم.. على العكس تماماً فهو قد يقضى ساعاتٍ طوالاً أمام محطة إخبارية أو برنامج حوارى ثم يكذّب كل ما سمعه ويبدأ بتحليل ما رآه وسمعه؛ ليخرج فى النهاية برأى عميق هو الأجدر أن تثق فيه وتحترمه لكنه عادة لا يعلن هذه الآراء إلا أمام صديقه الوحيد وذلك لأنه - حسب قوله - هو الوحيد الذى سيفهمه ويناقشه. أما الآخرون فهم إما متعصبون لا يستمعون وإما جاهلون سينظرون له ببلاهة ويهزون رؤوسهم كأنهم قد فهموا ثم يلقون بالأمر



كله خلف ظهورهم ليتحدثوا عن تلك الفتاة أو هذه المباراة.. لكل ما سبق لا يقرأ محمد جمال الصحف لذا كان المشهد غريباً على زوجته وهى ترى وجهه محمراً وجسده يرتجف من الانفعال وهو يقرأ تلك الجريدة التى ابتاعتها صباحاً لتضعها كمفارش لدولاب المطبخ - إنها طريقة فعالة لامتصاص المياه من الأوانى بعد غسلها- لم تدرك "صفاء" ماذا دهاه؟ ما الذى جعله مهتماً لهذه الدرجة؟.. لم تسأله؛ لأنها تعلم أنه على وشك الانفجار ومن الحكمة تحاشيه الآن.. فهو رغم طيبته وحنانه المفرطين يكاد يجن حين ينفعل حتى أنها لا تنسى تلك المرة التى هشّم فيها التلفاز والمرآه فى إحدى نوبات غضبه.. لذا تظاهرت بالتنظيف حول الأريكة التى يجلس عليها واختلست النظر لترى ما يقرأ.. لم تعرف من قبل أن زوجها مغرم بصفحة الحوادث إلى الحد الذى ينفعل كل هذا الانفعال وهو يقرؤها.. بعدها آمنت "صفاء" أن هذا أغرب يوم شاهدت فيه زوجها يتصرف بهذا الشكل الشاذ حين ألقى بالجريدة وهرع إلى حجرة النوم يغير ملابسه كيفما اتفق وفتح الباب بعنف وخرج لا يلوى على شئ دون أن يوجّه لها كلمة واحدة.. الحق أنها بدأت تخشى عليه بشدة.. ومنه على الأرجح.

❋ ❋ ❋



المكان : حجرة رئيس المباحث بقسم (.....) بالإسكندرية.

الحدث :التحقيق فى واقعة اختفاء المدعو ناجى حسن المنصورى.

الأشخاص : رئيس المباحث – زوجة المفقود .

- الضابط : اسمك وسنك وعنوانك.

-الزوجة : ميرفت صبحى اسماعيل.. ٣٣ سنة..٣ شارع ... الإسكندرية.

- الضابط : ماذا تعرفين عن الواقعة ؟

- الزوجة : زوجى لم يكن على ما يرام فى الفترة الأخيرة وازدادت حالته سوءاً فى اليوم الأخير قبل الحادث.. عاد إلى البيت مبكراً يحمل كتاباً يبدو عليه القدم.. تناول عشاءه معنا وبعدها ذهبنا للنوم وبقى هو وحده فى غرفة مكتبه المعزولة نسبياً عن باقى الشقة.. فجأة شممت الدخان وأحسست بأن المنزل يشتعل هرعت ناحية غرفة ناجى، وحين حاولت دخول الغرفة وجدتها مغلقة بإحكام وظللت أطرق بابها بلا جدوى حتى يأست واستشعرت الخطر على الأولاد فقررت أن أنجو بهم أولاً ثم أرى ما يمكننى فعله ولكنى بمجرد أن خرجت انهار البيت كأن قدماً هائلة تسحقه.. انتابنى الهلع بالطبع وضممت أبنائى حولى وقد ألجمتنا الصدمة حتى عن الصراخ، وقد اعتاد زوجى كتابة خواطره فى أجندة خضراء وجدتها ملقاة بجوار الباب لذا قررت قراءتها لعلى أفهم ما حدث له لكنها لم تكن أشياء مألوفة أو مفهومة.

- الضابط : ماذا تقصدين بأشياء غير مألوفة أو مفهومة؟



- الزوجة : كتابات غاية فى الغرابة.. ذكريات مشتركة بيننا.. أحداث أعرفها وأخرى لم أفهم منها شيئاً.. وأشياء تدور حول امرأة تدعى عائشة.

- الضابط : أرجو أن يتسع صدرك لسؤالى هذا.. هل تشكين أن يكون زوجك على علاقة بامرأة أخرى؟.

صمتت قليلًا مطرقة برأسها ثم أجابت:

- لا.. لا أظن ذلك.. فناجى كان مستقيماً ويعرف كيف يحافظ على بيته.. ليس من ذلك النوع من الرجال .

- الضابط : ألم يكن البيت يحتاج إلى ترميم مثلاً أو صدر له قرار إزالة؟.

- الزوجة : بالطبع لا، لقد كان أساس البيت قوياً ويعمّر مائة عام أخرى دون شكوى، فلو كان يحتاج ترميماً أو شيئاً من هذا القبيل لم نكن لنبخل فتلك حياتنا وحياة أبنائنا التى ستتعرض للخطر.

- الضابط : هل عانى زوجك من اضطرابات نفسية أو عقلية من قبل؟ هل مرَّ بصدمة عصيبة مثلاً فى الفترة الأخيرة أدت لهذه التغييرات فى شخصيته؟.

- الزوجة: لا شئ يستحق الذكر سوى أنه ترك العمل بعد أن استغنوا عنه، ربما مرّ بحالة حزن أو اكتئاب، ولكنها بالتأكيد لا تصل إلى حد المرض النفسى.. هذا يحدث كثيرًا كما تعلم وأى شخص معرّض له.

- هل لديكِ أقوال أخرى؟



- لا ولكن أرجوكم جِدُوه.. من أجلى.. من أجل أطفاله فهم ليس لهم إلا الله ثم هو.

- اطمئنى سنبذل أقصى ما بوسعنا.

*　　*　　*

يوماً ستلملمين أجزائى من كافة أقاليم مصر.. لكنك لن تجدى أنفى أبداً حيث ستأكله أفراس النهر.. سأظل أبداً جثة ناقصة.. عاجزة عن الخلود".

أوزوريس

ماذا أصابك يا حبيب القلب؟ أى روح شريرة مسّتك؟.. أنا سرك الذى لم تبُح به لأحد.. لمَ لم تفضِ إلىّ بمكنون صدرك ؟.. أمازلت تعتبرنى توأم روحك كما كنت تدعونى فى بداية زواجنا؟ أشعر الآن أنك بعيد جداً كأن ما بيننا سنوات ضوئية أو فجوة زمنية.. أترانى أغضبتك؟.. ما سر تلك الكلمات التى كتبتها لى صبيحة يوم الكارثة؟.. أكتبتها لى حقاً؟.. أم أننى أتوهم ذلك فحسب؟ لمَ لا تكون كتبتها لأنثى أخرى؟.. واحدة من حبيباتك السابقات مثلاً؟.. يا للصداع.. كثرة الأسئلة تحطّم رأسى كالمطارق.. أسئلة حائرة عاجزة لا تجد لها مستقراً.. كلماتك تبدو كتعويذة فرعونية لا أفهمها.. يبدو أنك تعاقبنى حين حاولت تعليمى هذا اللغة المعقدة.. لم أستجب لك حينها.. ليتنى فعلت.



تعيسات نحن النساء لأننا أحيانا نحاول أن نكون أبطالًا..

نحاول أن نتمرد على الطبيعة التي فطرنا عليها..

ونحاول أن نرتدي كعوبًا عالية لنرى هاماتنا تعلو هامات الرجال، ونضع نظارات ذات ألوان زاهية لنرى حياتنا جميلة وزاهية دون رجال ..

في حين واقعنا يقول عكس ذلك...

تعيسات نحن النساء لأننا نحاول أن نمثل القوة في وقت لا نقوى فيه حتى على لفظ كلمة قوة ..

ها أنا ذا امرأة تنهى العقد الثالث من حياتها بفقد زوجها وأم لفتاة وصبى صغير لا يعلم مصيرهما إلا الله.. تحاول باستماتة استبقاء أطلال ثقافة بالية لكن عقلها صار أشبه بمصفاة متسعة الثقوب تسمح بتسرب كل شئ وأى شئ.. على أية حال ما حاجتها للثقافة الآن؟ كل ثقافتها الآن من النوع الذى يتساءل فى حيرة عن استقلال الشعر عن رأس زوجها.. أو غزو جيوش الدهون لجسدها ومحاصرة خصرها من كل الجهات حتى لم يبقَ أمامها سوى أن تعلن الاستسلام بعد أن تعاون جسدها الخائن مع جيوش الدهون الغازية ضدها.. أما ما كانت تقرؤه عن ماركس وهيجل وحيرة ابن رشد فى الوصل بين الشريعة والفلسفة فقد صار فى نظرها محض خرافات كانت تسلى بها مراهقتها ليس إلا.. كما أنها – وحسب اعتقادها – ترى أن ثقافتها هذه هى السبب الرئيسى وراء رغبة "ناجى " فى الزواج منها.. المهم أنها عاشت حياة سعيدة التى



تحولت – مع الوقت - إلى مُرضيَة ومن ثَم إلى عادية.. فيم سترغب بعد ذلك؟ زوج محب توقف منذ زمن عن لومها.. وأبناء رأت فيهم أحلامها ومستقبلها.. أقصى ما تتمناه أن تدوم حياتها على هذا النحو.. لكنها لم تدم.. فجأة هبت تلك العاصفة الوحشية مسبوقة بزوابع من القلق الذى عانت منه قبل الحادث بأيام بسبب سوء أحوال زوجها النفسية بعد تركه للعمل دون سابق إنذار.. عاصفة اقتلعت من نفسها خيام الطمأنينة لتحوّلها لأرض خواء تزأر فيها رياح الخوف.

عادت تسترجع كل ما مر بهما من أحداث، ودون أن تدرى توقف عقلها عند ذلك اليوم الذى فقد فيه ناجى عمله، لم تفهم على وجه التحديد ما مشكلتها مع " ناجى " رغم أنها أحبته كما لم تحب أحداً قط وتستطيع أن تجزم أيضاً أن ناجى أحبها، ولكن بمرور الوقت بدأ الفتور يدب بينهما، تدريجياً تكونت فجوة فى حياتهما بدأت كثقبٍ متناهٍ فى الصغر ثم بدأ فى التمدد حتى ابتلع حبهما، كثيراً ما حاول " ناجى" أن يضع يدها على ما يؤرقه نحوها لكنها لم تفهم.. حاولت وحاولت لكنها لم تفهم.. لم تعرف ما ينقصه.. لم تستطع احتواءه، لذا لم تغفر لنفسها قط تقصيرها.. شعورها بالذنب أرّقها عشرين عاماً من حياتها معه، إحساسها بالفشل قتل ثقتها بنفسها.. تعلّم هو مع الوقت أن يكف عن لومها ولكنه بالمقابل تقوقع داخل عالمه الخاص.. لم يعد يشركها أفكاره ومشاعره كما كان.. يأس منها فجفت ينابيع الحب من قلبه فلم يبقَ منه سوى زوج يعود من العمل منهكاً يعوى من الجوع فيأكل كيفما اتفق ولا



يعلّق إيجاباً أو سلباً.. ما يجده يأكله فى صمت وحين تحاول أن تخرجه عن صمته كان يكتفى بردود على غرار " همممم " أو " جيد .. استمرى"، لتجده بعدها قد استرخى كمن شعر فجأة بالرضا عن الحياة.. ولابد أن يكمل لذته بإعداد كوب الشاى الممزوج بالقرنفل أو النعناع، يرتشفه ببطء واستمتاع كأنه غانية لعوب يداعبها فتتمنع فيسكب كلماته المحلاة بالحب فى أذنيها ليذوبا معاً فى عالم آخر لا أرى منه غير أمارات الانتشاء ترتسم على وجهه، وبالانتهاء من الشاى يسترد نشاطه كشابٍ فى العشرين فيهرع إلى مكتبه دون أن يعبأ بى ويغلق الباب خلفه فلا أراه إلا فى المساء وهو يستعد لمقابلة صديقه الوحيد، بعدها يعود صامتاً كساكنى القبور يجتر أفكاره وحده حتى يغلبه النوم فينام، هكذا انتهى يوم جديد من حياتهما.

كيف وصل بهما الحال إلى هذا الحد؟ وهما اللذان ظنا أنها سيعيشان معاً حياة لا يكف الناس عن سرد عجائبها وسعادتها.. كيف تحولا من عقلين يتناقشان ويتبادلان الآراء لزوجين لا يجمعهما إلا غرائزهما الأولية؟.. كيف قتلهما الروتين والتكرار ؟.. ليتها تعود لأيامهما الأولى.. أتراها تنسى هداياه الفريدة لها؟.. لم يشترِ لها شيئاً مما كان يشتريه المحبون لبعضهم، بل تفنَّن فى صنع هداياه لها كى لا تشبه أى هدية.. ودائماً ما كان يزينها باسمها أو صورتها، وهى أعطته نفسها بلا حدود، تصورت أن سعادتهما كزوج وزوجة إنما تبدأ من غرفة النوم



حيث اللذة المفرطة والنعيم المقيم لذا أعطته كل شئ فى ذلك العالم.. لكن بقيت الفجوة بينهما كما هى.

تقبلت هى الحياة على هذا المنوال، استسلمت للملل يقتلها كل لحظة وضمير يؤنبها كل ثانية على سعادة لم تمنحها لزوجها إلا أنه تغير كثيراً بالآونة الأخيرة، صار أكثر انطواء، شارداً طوال الوقت، تصادف مرة وهى تعبث بالحاسوب الخاص به أن وجدت صورة زفاف لم تتعرف على صاحبتها، تذكرت أنها لمحته يحدق بها طويلًا أكثر من مرة لكنه سرعان ما يغلقها إن أحس بوجودها.. لابد أنها فتاة أحبها ولم ينسها تماماً.. وربما يكون على علاقة بها حتى الآن.. لم تعد تدرى عنه شيئاً.. ها هى تفقد زوجها أخيراً.. يتسرب من بين يديها كحبَّات الرمال.. تنتظر كل يوم أن يخبرها أنه لم يعد يستطيع العيش معها وأنه سيطلقها لأن حبيبته عادت إليه.. لكنه لا يفعلها.. كل يوم تمزقها هذه الفكرة آلاف المرات لكنه لا يفعلها حتى لتوشك أن تطلب هى منه الطلاق لتستريح من هذا العذاب.. لماذا لا ينفعل ؟! لم يتبع سياسة هذا الصمت القاتل؟ فلينفعل ويسبها أو حتى ليضربها ولكن ليخرج من هذا السكون المستفز.

لقد سئمت كل هذا.. يجب أن تفعل شيئاً ينقذها من هذا الجنون.. ستواجهه.. ستصرخ فى وجهه أنه وغد حطم حياتها.. ربما لم يكن كذلك ولكنها تريد استفزازه كى يخرج من قوقعته تلك وبعدها ليكن ما يكون.. ستخبره أنها عرفت أمر حبيبته المجهولة تلك التى يحتفظ بصورتها حتى الآن.. اليوم أوان انفجارها ولن يمنعها أحد أن تتمه على



أكمل وجه بل ستجعله نووياً.. اليوم ستنتهى حالة انعدام الوزن التى تمر بها حياتهما.. فقط لتنهى وجبة الغذاء ثم تنتظر عودته.. ما زال الوقت مبكراً لعودته هو والأولاد.. سترسلهم إلى جدتهم كى تنفرد به.. انتهت فترة الهد .... ، لم تستطع أن تسترسل فى أفكاره لأنها سمعت باب الشقة يفتح ثم يغلق.. خرجت من المطبخ مسرعة لترى من القادم... لا أحد من المفترض أن يأتى الآن.

" مَن ؟ مَن بالباب ؟ "..

تهتف بصوت عالٍ أرعبها هى شخصياً وزاد رعبها حين لم تتلقَ رداً.. رأته وقد أتى مبكراً وقد هالها منظره.. كأنه تجاوز الخمسين وكتفاه متهدلتان، ليس منتصباً كعادته.. فتقول محاولة استفزازه :

- عدت مبكراً على غير عادتك ؟

لا يرد.. تنتابها الشكوك.. أتراه سيطلقها الآن؟ أم تزوج عليها؟ ستعرف الآن...

- ألن تتناول غداءك ؟

ينظر لها صامتاً.. ويتوجه ناحية غرفة المكتب التى يعتكف بها كلما أراد التفكير بعمقٍ فى شئ ما.. فتمشى خلفه وهى تقول :

- ألا تسمعنى؟.. أم أن حبيبتك القديمة عادت إليك وستطلقنى؟

نظر إليها ببطء ولكنها رأت في نظرته كل ما لم يقله.. رأت امتعاضه وسخطه وسخريته منها ثم أدار وجهه داخلاً الغرفة وأغلق الباب خلفه وهى تنظر له ذاهلة.. ماذا أصابه يا ترى؟.. لم تره فى تلك



الحالة منذ تزوجا.. فلتدعه يهدأ الآن ثم تعرف منه كل شئ.. تلك كانت سياستها معه حين يغضب.. كثيراً ما نصحت صديقاتها بذلك.. حين يغضب زوجك دعيه حتى يهدأ وسيأتى إليك يرتمى بأحضانك.. صحيح أنه لم يفعلها قط ولكن هذا لا ينفى القاعدة.. فلكل قاعدة بعض الاستثناءات وهو أحدها لذا ستتركه وتكمل الغداء وبعدها ستعرف كل شئ .

دخلت للمطبخ من جديد وهى تفكر لمَ لا يسمحون للزوجات باستخدام مصل الحقيقة مع أزواجهن.. أليس ذلك أدعى لاستقرار الأسر بشكل أفضل.. الرجال كذابون بطبيعتهم.. خائنون بفطرتهم.. خبثاء ماكرون لذا هم الأصلح للعمل؛ لأنهم يعرفون من أين تؤكل الكتف، أما المرأة المسكينة التى تضطرها الظروف للعمل فهى كالحمل وسط قطيع الذئاب.. حتى فى بيتها لم تستطع أن تتغلب على ذئبها.. لم تقدر على ترويضه.

تبتسم ابتسامة خفيفة حين تذكرت كلماته معها أثناء خطبتهما حين قال لها: " أحتاج امرأة تروضنى ولكن بحبل طويل دقيق لا أشعر به ولا يقيدنى وسوط حريرى ناعم يهدهدنى.. حينها أكون لك خالصًا".. ظنت حينها أنه يتفلسف ويبالغ.. ظنت حينها أنها قادرة أن تكون تلك المرأة.. ظنت حينها الأمر سهل وأنه سرعان ما تتغير الحياة بعد الزواج ويصبح زوجاً وأباً يرجع من عمله منهكاً يلهث حاملاً الجريدة والبطيخة العتيدتين كما تحب الأفلام المصرية أن تصوّر الأب الكادح.. لكنها كانت



مخطئة.. اكتشفت بعد انتهاء شهر العسل أنه يطالبها بترويضه.. وأثبتت الأيام فشلها .. كل يوم فشل جديد وإحباط جديد.. حتى صارت حياتهما سلسلة لا تنتهى من الإحباطات.. من حينها وهى تحلم بحل سحرى يجعل الرجال قابلين للترويض دون عناء.. هم لا يعرفون معنى أن تكون امرأة مطالبة دوما بالتنظيف والاعتناء بأطفالها وإعداد الطعام للأسرة وزيارة الأقارب فى المناسبات المختلفة.. وبعد ذلك مطالبة أيضاً أن تكون جميلة، لبقة، رائعة، كأنها قضت يومها فى مركز التجميل.. أرفض أن يطالبنى أحد أن أكون شيئاً غير زوجة مصرية تعتنى بأسرتها فحسب.. لكن " ناجى " كان يطلب الكثير بحق.. كيف أقنعه أننى لا أستطيع أن أعد كل يوم طعاماً غير تقليدى، وأن أقضى وقتى بحثاً عن وجبات جديدة.. ثم بعد إجهاد يوم طويل يطلبنى لنخرج سوياً.. قد يظن أحدكم أنه يدللنى لكن لكل إنسان طاقته.. لماذا لا يتفهم ذلك؟ لماذا يقتلنى بنظرات تصرخ ألماً ويأساً؟ لماذا يحاصرنى بصمته وهدوءه؟ .. لذا أتساءل: لم لا يسمحون للزوجات باستخدام مصل الحقيقة مع أزواجهن؟.. لا يهم فلنؤجل التفكير فى هذا الأمر الآن وأذهب لأناديه للغداء.

- ناجى .. الغداء جاهز.

تمر لحظات لا تسمع فيها شيئاً ثم تشعر بحركته فى الغرفة..

- ناجى .. الأكل سيبرد.



يفتح الباب ببطء ويخرج.. يجلس على المائدة دون أن يتوجه لها بكلمة أو حتى ينظر إليها.. تُناوله بعض الخبز وتسأله:

- ماذا بك يا حبيبى؟ تبدو مهموماً.. أنا آسفة.. أعرف أننى ضايقتك لكنى لم أكن أقصد.. أنت تعلم كم أحبك، قل لى ما يضايقك فحسب.

يرفع رأسه ناحيتها ويخيّل إليها أن عينيه تلمعان إثر دموع حبيسة يأبى أن تراها ثم يقول أخيراً :

- لقد تركت العمل .

* * *

المكان : حجرة رئيس المباحث بقسم (.....) بالإسكندرية.

الحدث : التحقيق فى واقعة اختفاء المدعو ناجى حسن المنصورى.

الأشخاص : رئيس المباحث – صديق المفقود .

- الضابط : اسمك وسنك وعنوانك.

- محمد جمال الديب.. ٣٦ عاماً..محاسب وأسكن فى ٥٧ شارع...

- ما معلوماتك عن الحادث ؟

- " ناجى " هو أقرب صديق لى.. قبل الحادث بيوم كنا فى شارع النبى دانيال نتفقد باعة الكتب حين لفت نظره كتاباً بعينه.. لطالما كان مولعاً بهذه الكتب.. لا أعرف موضوع الكتاب بالضبط.. أغلب الظن أنه عن الأساطير أو شئ من هذا القبيل.. المهم أنه اشتراه وكان متلهفاً بشدة



لقراءته حتى أنه اعتذر عن مصاحبتى لإكمال الجولة وعاد لبيته مباشرة.

- هل أنت متأكد أنه عاد لبيته فور مغادرتك؟

- لا أستطيع الجزم بذلك.. حين افترقنا كنا فى أول الليل والوقت مبكراً.. ربما ذهب لمكان ما بعدها.

- ألا تظن معى أن صديقك قد عانى من لوثة عقلية ما.. أو لنقل على الأقل أزمة نفسية حادة عقب تركه للعمل ؟

- لا أظن ذلك.. قد يُتهم "ناجى " بغرابة الأطوار لا شك فى ذلك.. إلا أن مثله لا تصيبه الأمراض النفسية بسهولة.. أعتقد أن الأمر أكبر من مجرد ترك العمل .

- هل لك تصور معين لما حدث باعتبارك آخر من رأى السيد "ناجى "؟.

- لا أعرف شيئاً محدداً.. كل ما أعرفه أن الأمر يبدأ وينتهى عند هذا الكتاب.

- هل تريد أن تقول أن الكتاب الذى اشتراه صديقك هو السبب فى انهيار منزله واختفائه؟

- لست واثقاً ولكن هذا ما يبدو لى.

- هل لديك أقوال أخرى ؟

- لا.



- تفضل.. وقّع على أقوالك.. أشكرك على وقتك وأتمنى ألا نكون قد أزعجناك.

- لا أبداً .. أرجو فقط أن أكون قد ساعدتكم فى البحث عنه.

- بالتأكيد .. وإذا تذكرت أى شئ يفيدنا أرجو أن تتصل بى فوراً.

- إن شاء الله .

ما إن انتهى التحقيق فى اختفاء ناجى حتى وجدتنى أتجه إلى السلطنة.. وحيداً أجلس فى ذلك المقهى الذى اعتدنا الجلوس فيه معاً مستعيدين كل سنين عمرنا التى قضيناها سويا.. تشاركنا فى كل شئ.. أحلامنا.. أفكارنا.. آرائنا السياسية.. أزفر دخان نرجيلتى ببطء حتى أشعر أنه يتجمد فى الهواء برهة ثم يعاود التشكل راسماً علامة استفهام تحتضن علامة تعجب ويحيطان وجهه؟!.. كنت أعلم منذ زمن أنك لن تغرب فى صمت يا صديقى.. عشت حياة مندفعة جريئة تتدفق باستمرار نحو شئ لم تدر كنهه.. تبدو لى الآن فتى فى العشرين نزِق، متهور وحالم.. يثور على كل الأعراف محاولاً رسم العالم حسب رؤيته، تمرح.. لم يكن ليعكر صفوك شئ.. مثيرٌ للمتاعب كطفل شقى يأبى أن يترك شيئا دون أن يكسره ويفتش أنقاضه.. أحياناً كنت أراك كشلالٍ يجرى فى قنينة صغيرة لا تسعك.. لا تستطيع أن تهدر أو تسقط سقوطاً حراً.. روحك تبدو كشبح هائم لا يعرف قراراً.. ماذا فعلت بنفسك أيها البائس؟.. عشت عمراً معك فهمتك فيه كما لم يفهمك أحد، فلمَ أصررت أن تحيرنى إلى هذا الحد؟.. أتمنى لو تخبرنى أين ذهبت بعد لقائنا الأخير؟! ..



ما الذى رأيته فى ذلك الكتاب الكريه الذى قلب كيانك منذ اقتنيته؟.. لم أفهم شغفك بكل ما هو قديم.. عشت تنقب عن الماضى فى كل شئ وكأنك قادم منه أو تحن للعودة إليه.. الآن أستطيع أن أفسر ذلك الشغف بأغانى "فيروز" و"أم كلثوم" وغيرهما فى الوقت الذى لم يكن أحد يسمعهم إلا جيل أوشك على الانتقال لدار الآخرة.. ليست صدفة أن تكون دراستك حول التاريخ والآثار.. لم تكن محاولة معرفة أصول عائلتك لمجرد التباهى بِجّدٍ تركى ما كما يدعى الجميع.. الآن أفهم أن لهذا كله معنى لكنى لا أعرفه.. أتذكر كتاباتك وقصصك التى كنا نقرأها معاً هنا؟ كلها دارت أيضاً حول نفس المعنى.. ذلك الرجل الذى وجد صندوقاً به مخطوطات تركها له أجداده ثم تأتى النهاية بأنه حائر بين العالم الذى فتحه له الصندوق والعالم الذى اعتاده كأب وزوج وموظف.. كان هذا أنت بلا شك.. تلك هواجسك تنقلها على الورق بشكل ماكر لتبدو كقصة.. لم أشك فى موهبتك الأدبية حتى أننى كثيراً ما شجعتك أن تنشرها بشكل ما.. لَكَم تمنيت أن تكون كاتباً له اسمه بين الكتَّاب العظام.. أتذكر حين كنت تقرأ لى يومياتك على ذلك المقهى الصغير؟! .. أسئلة كثيرة تحيرنى وأنتظرك لتجيب عنها حين تعود.. لا أفهم شيئاً لكنى أتمنى أن تكون بخير.. وأن تعود.. أنا وحيد جداً بدونك.. إننى شجرة فقدت كل أوراقها فى الخريف؛ فصارت جرداء لا ظل لها ولا ثمر فيها.. صرت حطباً ينتظر الاحتراق.

* * *



(الفصل السابع)

نادرة

" نادرة .. هيا سنتأخر " .

هكذا هتف " أحمد شعراوى " زوج نادرة يستحثها لتسرع قليلاً كى لا يتأخرا عن دعوة والدته للغداء ببيتهم الريفى فى مدينة كفر الدور حيث مسقط رأسه، ها هو يرتدى ملابسه منذ ساعة كاملة وينتظرها لتكمل زينتها.. تبدو شاردة منذ البارحة وكأن هناك ما يشغلها.. هى مرهفة الحس أكثر من اللازم فلابد أن خبر انهيار ذلك العقار أمس وتشرد ساكنيه قد أثر فى أعصابها.. أظنها تحتاج بعض الترفيه لتنسى وقد جاءت هذه الدعوة فى وقتها.

" ها قد انتهيت .. أنا جاهزة " .

قالتها وهى ترتدى حذاءها مسرعة وهى تهرول ناحية الباب دون أن تنظر إليه محاولة إخفاء ذلك الانفعال على وجهها الذى حاولت جاهدة أن تخفيه وسط زينتها، فالقريبون منها يعرفون أنها لا تتزين بابتذال بل تكتفى ببعض اللمسات هنا وهناك، ولكن هذه المرة تختلف فقد أعاد لها انهيار ذلك العقار ذكريات قديمة ما زالت محفورة فى تعاريج مخها.. ذكريات أثيرة إلى قلبها عمرها عشرون عامًا.. فقبل عشرين عام عرفت " ناجى" عن طريق صديقة لها قدمته إليها، وما إن بدأ



يتحدث حتى لفت انتباهها.. يتحدث بثقة.. بعمق.. وبغرور.. لا تشبع أذنك من سماع حديثه الذى لا ينتهى، ولا تكف عيناك عن مراقبة ضحكته وانفعالات وجهه.. استفزها غروره فأبت إلا أن تواجهه برأيها فيه.. تذكر وجهه وقد ألجمته الدهشة والمفاجأة وهى تصب عليه جام حنقها ثم اتسعت ابتسامته لها فامتصت غضبها.. وقتها عرفت أنه لها وأنها له.. تقاربا بشدة وتكلما فى كل شئ.. حكت له عن نفسها وأهلها، كل ما بداخلهما وحولهما ينطق بالحب فليس سوى أن يقولها أحدهما.. وهذا ما لم يحدث أبداً.. كلاهما كان من النوع المعتد بكرامته لذا فضّلا أن يظلّا صديقين.. لم يخذلها قط فى أى شأن يخصها.. فلطالما أحاطها بعنايته ورعايته.. حتى قبل زفافها بأيام كان معها.. عشرون عامًا تحس به حولها وتشعر بمراقبته لها وأنها مازالت تحت عينه الساهرة لرعايتها، تعرف أنه فى تأهبٍ دائمٍ ليهب لنجدتها حين تحتاجه، يصعب أن تجد شخصاً أحبها وأفرط فى تدليلها مثله.. لا تنكر أنها تمنته زوجاً لها ولكن تباً لاعتداده بنفسه.. كيف يقف الإنسان أمام سعادته هكذا؟.. ولكنها الآن امرأة متزوجة ولا يصح لها أن تفكر بهذا الشكل.. لا يصح أن تذكره أبداً.. هى تحب زوجها وتحترمه وهو أيضا يحبها ويحترمها، ولكنها رغم محاولاتها المستميتة لم تستطع أن تزيل ذلك الوشم المحفور فى خلايا عقلها باسمه.



طوال الطريق إلى كفر الدوار لم تتفوه بكلمة واحدة، كانت غارقة حتى أذنيها فى ذكرياتها ولم يحاول زوجها إخراجها عن صمتها، من حسن الحظ أن ابنتها تقضى يومين فى بيت جدتها، فبالتأكيد كانت ستلاحظ التغير الذى طرأ أخيراً على أمها.. عادت تتذكر " ناجى " حينما كانا غِرَّين ساذجين يلهوان ويضحكان بلا هم حقيقى.. كل ما حولهما ملوث إلا هما، من أين أتت بكل هذه البراءة؟ لا تعلم.. ما تعلمه أنها كانت على سجيتها معه حتى إنها لتفضى إليه بما تخجل أن تفضى به لنفسها.. قبل زواجها بأحمد وأثناء خطبتهما شعرت بأنها بحاجة إليه.. ففى تلك الفترة تحدث الخلافات المعتادة بين الفتاة وخطيبها حول تدخّل أمه فى حياتها وعن إهماله لها و.. و.. أنتم تعرفون هذه الأشياء التى لا يخلو منها بيت مصرى.. لم تلجأ حينها إلا له وقد أصابت فى اختيارها .. لم يكن غيره ليفهمها ويدعمها مثلما فعل .. بالنسبة لها هو الدرع الذى تصد به ضربات الحياة والآخرين.. فى الأيام الأخيرة لهما سويًا لاحظت أنه يحتاجها بشدة لكن إعدادات الزفاف شغلها عنه ولم تستطع أن تقابله بعدها.. أهى أنانية إلى هذا الحد أم تقاوم شيئًا ما ناحيته؟.. لم تعلم شيئًا عنه منذ تزوجت حتى أمس حين قرأت خبر انهيار العقار الذى يسكنه وقرأت اسمه بين سطور المقال.. لم تستطع أن تكبح تلك الشهقة التى انطلقت منها رغماً عنها مما دفع زوجها أن يهرع إليها ليسألها عما أصابها.. أخبرته أن الخبر قد هز مشاعرها بشدة.. قرأت أنهم لم يعثروا عليه وأنَّ أحداً من أهله لم يصب.. رغماً عنها تذكرت كلماته



حين عاتبته أنه يؤذى نفسه دائمًا ويعاند فى كل موقف وهو يعلم أن نهايته قد تضره فيقول بعد كل عتاب ...

" إن الله جعلنى مثل ذى القرنين وأعطانى من كل شئ سببا .. لكنه خلق لى روحاً قلقة لا تستقر حتى تبلغ مطلع الشمس ومغربها ".

يا له من تشبيه.. بهرتها تشبيهاته دومًا.. ولكن الأهم من كل ذلك.. أين هو الآن؟! ماذا يفعل؟! تكاد تجن وهذا القلق ينهش صدرها.. قلق سادى متوحش لا يرحم قلبها.. لو أنها فقط تعلم مكانه.. ماذا ستفعل حينئذٍ؟ لا تعلم المهم أن تطمئن أنه بخير فقط .

" أهلًا أهلًا .. تأخرتم كثيراً على موعد الغداء لكننا بانتظاركم ".

انتبهت نادرة أنهما وصلا بيت حماتها.. فعدلت من وضعها بسرعة وعلقت ابتسامة باهتة على شفتيها كى لا تثير تساؤلاتها التى لا تنتهى .. فهى رغم طيبتها ثرثارة وفضولية إلى أقصى حد وهو ما لا تطيقه نادرة وتحاول تجنبه بكافة الوسائل دون جدوى، أسرعت نحوها تعانقها وتسألها عن أخبارها وصحتها كى لا تترك لها فرصة الحديث.. تريد أن تختلى بنفسها فى أسرع وقت ولكنه اختيار عزيز المنال الآن.. فلتتحمل هذه المظاهر الاجتماعية المملة وبعدها تذهب لحجرتها بحجة أنها متعبة وبحاجة إلى النوم.. فقط لتمر هذه الساعات بسرعة.. وحاولتْ أن تندمج بين الجمع العائلى تبادلهم الأحاديث السخيفة إلا أنها بدَتْ مثل



جزيرة متوحدة يحيط بها الماء من كل ناحية.. فرغم تظاهرها أنها طبيعية لم يتوقف عقلها عن تكرار سؤال واحد... أين ناجى الآن ؟.

الكل لاحظ أنها ليست على ما يرام.. الهمسات تعلو من حولها وتتكاثر التعليقات، لذا لم تجد " سلوى " بُدَّاً من أن تنفرد بأختها لمحاولة فهم ما أصابها لعلها تنجح فى إخراجها من شرنقتها، ما أن انتهى الغداء وما أعقبه من شرب الشاى وبعض المجاملات وتبادل الأحاديث السياسية كالعادة، وعمَّ إذا كانت الثورة الثالثة ستؤتى ثمارها أم تلحق بأختيها وعن تصريحات الجيش الأخيرة التى توحى بنفاد صبره من القوى السياسية المختلفة، واحتدمت المناقشات بشدة حتى أنهم لم ينتبهوا لتسلل نادرة من بينهم بعد غمغمة خافتة لم تهتم بأن يسمعها أحد، ولم تضيِّع سلوى الفرصة فخرجت فى أعقابها.. وما إن أغلقتا باب الغرفة حتى تهاوت نادرة فوق السرير وانهار سد مقاومتها ففاضت مشاعرها الحقيقية ترسم نفسها على ملامحها بصورة أفزعت سلوى فهتفت:

- ما بك؟ ماذا حدث؟.. هل تشاجرتما؟

بصوتٍ مختنقٍ كمَن يهُم بالبكاء أجابت نادرة :

- ناجى.

- ناجى؟ ما به؟

- لا أعلم وهذا ما يكاد يصيبنى بالجنون.

- ما زلت لم أفهم بعد.

- كنت أتصفح إحدى المواقع على شبكة الانترنت أمس فقرأت خبر انهيار بيته، وأنه اختفى، وأنه لم يكن على ما يرام الفترة الأخيرة.. لم أفهم شيئاً يا سلوى.. لم أفهم.

- أهذا ما يقلقك؟.. أنتِ تعرفين ناجى وجنونه أكثر منى.. ربما ذهب لأحد أصدقائه أو سافر إلى أى مكان فجأة ؟.. ربما لا يعلم ما حدث لمنزله حتى الآن.

نظرت لها نادرة نظرة نارية كادت سلوى تشعر بلسعاتها فوق جلدها وقالت :

- من الممكن أن يكون ناجى فى بعض الأحيان مجنوناً كما تقولين ولكنه لم يكن أبداً غبياً أو لا مبالياً لدرجة أنه لا يعلم ما حل به .

تكومت نادرة فور انتهائها من حديثها وهى تنشج وتقاوم أن تنفجر باكية خاصة أمام أختها التى احتضنتها برفقٍ وهى تربت على رأسها شأن مَن يهدهد طفلاً تائهًا وقالت :

- اهدأى يا حبيبتى .. اهدأى .. كل شئ سيكون على ما يرام إن شاء الله.

ثم اسطردت قائلة محاولة إضحاكها:

- ثم إن "ناجى" كما يقول المثل الشعبى "مثل القطط بسبعة أرواح".. أليس هو مَن تسلق الشجرة من أجلك؟! ،يومها سقط وذراعه كاد أن ينكسر، لكنه قام من سقطته مثل عِفريت وهو يضحك.. صدقينى .. مثل ناجى لا يُقلق عليه بل منه .



لمحت شبح ابتسامة يغزو كآبة وجهها فاستمرت فى محاولة الترفيه عنها ولم تدرِ أن نادرة ذهبت بعيداً جداً.. حين كانت تقف هى وهو فى حديقة ما يتحدثان وفجأة قرر ناجى أن يتسلق الشجرة.. هكذا دون أى مقدمات.. حاولت إثناءه بشتى الطرق لكنها فشلت وسرعان ما غافلها ومضى يتسلق الشجرة حتى وصل إلى أقصى ارتفاعٍ ممكن وهى ترجوه أن يهبط وحين بدا أنه اقتنع أخيراً بالنزول أفلتت يده وسقط.. لم تستطع أن تمنع تلك صرخة الفزع التى انطلقت منها وهرعت نحوه متلهفة تخشى أن يكون أصابه مكروه لكنها وجدته ينهض وهو يضحك كأنه لم يسقط قط.. لم تفهم أبداً ما حدث.. هى واثقة أن السقطة مؤلمة بل هى واثقة أنه يتألم لكنه يضحك.. ومع الوقت فهمت أن هذا أسلوبه فى حل مشكلاته.. يضحك عليها ولا يعيرها اهتماماً لكنه أبداً لا يتجاهلها.. صلبٌ رغم كل ما أحاط به بل فى كل ما أحاط بها هى أيضاً، راسخٌ متحجرٌ كأنه الجبل .. كان قلعتها تتحصن بداخله عن كل ما يؤذيها.. عند هذه النقطة لم تعد تتحمل أكثر فأجهشت بالبكاء على نحوٍ انتفضت له "سلوى" وصارت تبسمل وتحوقل وتستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وتضمها أكثر لصدرها، ووسط بكائها بدا لسلوى أنها تقول شيئاً فأصغت إليها لعلها تعرف ما تقوله، خُيّل إليها أنها تقول :

- مجرد وجوده كان يطمئننى حتى لو بيننا مسافات.. يحمينى حتى من نفسى.. أشعر أن الأرض تهتز من تحتى.



لأول مرة ترى سلوى أختها فى هذه الحالة.. لأول مرة تبكى بهذا الانهيار، تعودت دائماً أن تراها قوية متماسكة حتى فى أحلك الظروف.. شعرت ناحيتها بشفقة عجيبة.. كأختين ربط بينهما العديد من المشاعر تباينت بمرور الزمن وتعاقب المواقف ما بين حب وحنان وغيرة وغضب ثم تجاهل ثم حب من جديد ثم أتى النضج بكل يحمله من تبريد لكل العواطف فلا يبقى من الحب سوى بعض المقابلات فى المناسبات المختلفة وبعض الاتصالات الهاتفية التى لا تسمن ولا تغنى شيئاً.. لكنها اليوم ترى جانباً جديداً من حياة أختها لم تره من قبل.. جانب ضعيف غامض ومحيّر، بدت لها كأنها استمدت قوتها منه طوال هذه الأعوام، ما زالت نادرة تبكى فى أحضانها صامتة.. هدأت قليلاً واستكانت لذا ساعدتها أن تسترخى على سريرها، من الأفضل لها أن تنام الآن وحين تصحو ستصبح أفضل.. ألقت فوقها غطاءً خفيفاً رغم أن الجو ليس بارداً وأطفأت النور ثم أغلقت الباب وخرجت.

ظلت نادرة ساكنة حتى أن الرائى لها قد يظنها ماتت أو على أفضل تقدير سقطت فى غيبوبة عميقة، لكن أحداً لن يتصور ذلك البركان الذى يعتمل بأعماقها، تستعيد ذكرياتهما معاً فتنهمر دموعها أنهاراً بلا توقف.. قلبها يحدثها أن مكروهاً أصابه، ما زال قلبها يلتقط ذبذبته رغم كل هذه الأعوام.. تُرى هل انهار البيت وهو فيه ولم يجدوه تحت الأنقاض؟.. لا .. لا تستطيع تصور هذا قط.. لن تستوعب انتهاءه بهذه السهولة، دون أن تدرى عادت دموعها تسيل فى صمتٍ وقلبها يطبق



على بعضه بعضاً حتى شهقتها تأبى أن تخرج من صدرها، روحها تنصهر تريد أن تطمئن عليه، لابد أن تفعل شيئاً.. لابد أن تعرف، ولكن كيف ؟! أتراها تذهب تقتفى أثره وهى امرأة متزوجة تحترم زوجها ونفسها قبل كل شئ؟! أم ترسل " سلوى "؟!، لا تظنها تقبل ثم إنها رغم حنوها تنظر لها نظرات إشفاق ولكنه ممزوج بما يشبه الازدراء.. كأنها تقول لها: "ألستِ متزوجة ؟!.. كيف تحملين رجلاً آخرًا فى عقلك أو قلبك؟.. كيف تفزعين لغياب رجل ليس زوجك؟! " .. إنها متأكدة أنها توشك أن تتفوه بمثل هذا الكلام ولكنها تؤجل اللحظة حتى تخرج هى من عثرتها تلك، وبعدها ستنقض عليها بلا هوادة.. ولكنها تعلم أنها أكثر مَن حافظت على نفسها وزوجها.. هى تحبه لا شك ولم تفعل أى شئ من شأنه أن يشينه أو يشينها.. ترى هل سلوى على حق فى نظراتها؟ هل تخون زوجها حقاً؟.. هل الخيانة خيانة الفراش فقط أم أن خيانة النفس أكثر إثماً؟! .. لا تعرف.. ما تعرفه أنها حاولت وحاولت و.... وفشلت.. نعم فشلت، لم تستطع قط أن تستأصله من نفسها.. هل يحاسبها الله على ما ليس بيدها؟.. هل أخطأت حين سمحت له أن يستشرى بداخلها هكذا أم تراها أخطأت حين سمحت لنفسها أن تحتله روحاً وفكراً وتستولى عليه كلية؟! .. كلاهما كان يعلم أنه ليس للآخر ومع ذلك استمرا فى علاقتهما - البريئة رغم كل شئ – للنهاية.. أحبت زوجها وهو معها وخُطِبت له وهو معها وكادت تفسخ خِطبتها وهو معها – بل هو مَن منعها فى الواقع – حتى تزوجت ولم يكن معها.. حدثته للمرة الأخيرة قبل يوم زفافها



بيومين.. ولم يكن ثمة نوع من أنواع الوداع.. كأنهم سيلتقون كل يوم.. حديثاً عابراً كأنهما كانا لا يعلمان أنهما سيفترقان.. ربما إلى الأبد، ما الحل إذن؟.. سلوى لن تفهمها ونفسها لا ترحمها، وقلقها عليه ينهشها وضميرها يأبى إلا أن يزيد الأمر سوء بنصائحه البعيدة عن الواقع.

يا إلهى أما من مخرجٍ؟.. رحماك يا رب.. وكأن الله استجاب لها فى حينها، تألق اسمه فى ذاكرتها فجأة على نحو أشبه بالإلهام وهى التى اعتادت أن تتصور نفسها بعيدة عن الله ولكن ها هو يثبت لها أنه معها يصرّف لها شأنها وينتشلها من يأسها.

" سمير" ابن خالتها .. يصغرها ببضعة أعوام لكنها تثق به وكثيراً ما ساعدها فيما مضى فى أشد أزماتها.. كيف تاه اسمه عن بالها طوال تلك الفترة.. من حسن حظها أنه هذه الأيام يقضى عطلته بكفر الدوار ببيت عائلته، ولن يرفض بالتأكيد مساعدتها فى ذلك الأمر.. لذا فقد انتفضت على الفور مهشمة خمولها ويأسها والتقطت جوالها بلهفة ضاغطة أزراره بأصابع مرتجفة.. ها هو أخيراً.. واسترخت حين قرأت على الشاشة... جار الاتصال .... " سمير" .

- مرحبا .

- سمير.. كيف حالك ؟.

- بخير والحمد لله.. ما بكِ؟ صوتك يبدو مرهقاً ؟.

- لا تقلق ولكنى أريد مقابلتك لأمر هام، أنا فى بيت حماتى.. هل تستطيع المجئ؟.



- لا مشكلة .. ولكن ماذا هناك؟
- سأخبرك عندما تأتى، لا تتأخر.
- سأفعل .

أنهت المكالمة وألقت هاتفها بلا مبالاة وأمعنت النظر فى القلادة الفضية التى تزين نحرها وتحسست حروف اسمها المنقوشة عليها، أعادتها القلادة إلى عالم ذكرياتها معاً، فقد أهداها ناجى تلك القلادة فى أول عيد ميلاد لها منذ أن عرفته.

- أغمضى عينيك .
- لماذا؟
- أغمضيهم فحسب .

لم تشعر إلا ويداه تحيطان جيدها بتلك القلادة وقال :

- كل عام وأنتِ بخير.

لم تفارقها هذه القلادة من حينها.. صارت تدريجيا أيقونة تذكرها به، ترى هل ما زال يتذكرها هو الآخر أم تراه نسيها وسط زحام الحياة ؟.. لم تستطع الإجابة قط عن هذا التساؤل حتى الآن.

طرق مسامعها صوت سمير محيياً الجالسين بمرحه المعتاد فعدلت هندامها قليلًا وأضافت بعض المساحيق لتخفى آثار بكائها قبل أن تخرج إليه وسرعان ما استطاعت الانفراد به فى الشرفة مستغلة انشغال الآخرين بأحاديثهم التى لا تنتهى، فبادرها قائلا :

- ما بك ؟.. أقلقتينى .



- أقرأت هذا المقال ؟.

قالتها وناولته هاتفها المتصل بشبكة الانترنت حيث يظهر المقال الذى يتحدث عن انهيار منزل ناجى واختفائه، فقرأه بسرعة ونظر لها بعدم فهم، مما جعلها تزفر فى ضيق وقالت :

- مثلما قرأت ناجى مختفٍ وأنا لا أعلم عنه أى شئ .

سألها والحيرة تطل من عينيه قائلاً :

- والمطلوب؟!.

أجابته بلهفة كأنها تنتظر هذا السؤال تحديدًا منذ مجيئه:

- أريدك أن تعرف ما حدث بخصوص هذا الموضوع، أى معلومة قد تطمئننى، أنت لديك العديد من العلاقات بضباط شرطة وصحفيين وغيرهم .

صمتت قليلًا ثم أكملت :

- وبدون معرفة أى أحد بالطبع .

سألها باستنكار وقد أوشك صوته على الارتفاع قليلاً :

- نادرة.. أنتِ متزوجة ولديك أسرة قد تتضرر إذا علم أو حتى لاحظ أحد اهتمامك بهذا الأمر.

أجابته بصرامة قائلة :

- أعلم كل هذا ولذلك طلبت منك ألا يعلم أىّ كائن بما طلبته منك.. والآن هل تساعدنى أم لا؟.

هز سمير كتفيه بمعنى أنه لا حيلة له وقال :



- بالتأكيد، لا يسعنى سوى مساعدتك، حتى لو لم أكن مقتنعاً.

نظرت له بامتنان قائلة:

- لا أعلم كيف أشكرك؟.

- لا عليك فأنتِ طالما ساندتنى، ولكن الآن يجب أن نعود إليهم قبل أن يلاحظوا غيابنا.

عادت تتطلع إلى السماء كأنها تتلو صلاة ما وهى تدعو أن يحفظه الله دون أن تدرى أن "ناجى" يواجه أسوأ كوابيسه الآن.. أسوأها على الإطلاق .

* * *



(الفصل الثامن)

هلاوس حقيقية

كان المكان أشبه بحانة أو خان من الخانات القديمة التى انتشرت فى العصور الوسطى، دارت عيناه بين أرجاء المكان متفاديًا الاصطدام بأجساد الشباب المستلقين فى كل ركن، بعضهم كان مضطجعًا على الأرض، وآخرون على أسرتهم، يجمعهم المكان وتفصلهم عوالم متفرقة، فقد بدا أن كلاً منهم يحيا فى عالم مستقل بذاته، اشمأزت نفسه من القذارة المنبعثة من أجسادهم مختلطة برائحة بقايا لفافات التبغ الملقاة هنا وهناك بإهمال، لا يعرف ما الذى يدفع شخصا بمثل مكانته لدخول مكان مثل هذا؟، ربما هو الفضول أو السأم، ربما يحاول أن يكسر روتين حياته بالدخول فى مغامرة غير محسوبة العواقب، ربما هناك سبب لا يعرفه بعد.. المهم أنه دخل وسيعرف ماذا يرتب له القدر.

التقطت عيناه البار فى ذلك الركن القصى من الحانة ويقف خلفه الساقى مرتدياً جينز أزرق قد حال لونه وامتلأ بالبقع وقد كشف عن نصفه العلوى إلا من قلادة تتدلى من رقبته تنتهى بحلية معدنية على شكل جمجمة حمراء العينين، بدا منشغلا بتنظيف الكؤوس وترتيبها ومسح الطاولة أمامه ولكنه سرعان ما التفت إليه وابتسم حين لاحظ اقترابه وقال كاشفًا عن أسنان صفراء :



- مرحباً يا سيدى تفضل.. يبدو أن هذه هى أول مرة تشرفنا هنا، على العموم مهما كان ذوقك ستجده عندى.

ثم غمز بعينه وقال :

- حتى ال .... أنت تفهم بالطبع.. بم تأمر؟.

تنحنح بتوتر ملحوظ وأجاب بصعوبة :

- أى شئ .

نظر له الساقى نظرة خبير كمَن رأى من صنوف البشر أشكالًا حتى بات على دراية تامة بكل ما يختلج فى نفوسهم، وهمّ أن يحضر له مشروبًا ما لولا أن استوقفه صوت أنثوى حازم :

- أحضر له كأساً من الجعة.

بدا الصوت مألوفاً له بشدة لولا أن صاحبته من المستحيل أن تتواجد فى مكان بمثل هذه الوضاعة، فقد كانت فتاة أرستقراطية أحبها أثناء دراسته الجامعية ثم انفصلا لأنه لم يستطع التقدم لخطبتها آنذاك ثم فرقتهما الحياة كعادتها مع المحبين، التفت ناحية الصوت؛ ليتبين صاحبة الصوت إلا أنه لم يستطع رؤية ملامحها بوضوح فقد كانت الإضاءة خافتة وزاد من تشوش رؤيته دخان سيجارتها الكثيف وتدلى شعرها الذى كان لونه خليطًا بين البنى والأشقر على جانبى وجهها.. قالت دون أن تلتفت إليه :

- ما الذى أتى بك إلى هنا؟

أجابها مستنكراً وهو يكذّب أذنيه قائلاً :



- نعم ؟!

- أظنك سمعتنى جيداً ومع ذلك سأعيد عليك السؤال، أسألك ما الذى أتى بك إلى هنا؟

كان يود لو يصرخ فيها أنها وقحة.. أن يخبرها أن هذا ليس من شأنها، إلا أنه لا يعرف لماذا أجاب بخنوع:

- لا أعلم .

أطلقت ضحكة ساخرة جعلت الدماء تحتشد فى وجهه غضبًا ثم التفتت ناحيته رافعة رأسها مما جعل الضوء يكشف تفاصيل وجهها قالت :

- مازلت كما أنت، لم ولن تتغير.

لو أن قنبلة ذرية انفجرت فى تلك الحانة محولة كل شئ إلى رماد لما كان تأثيرها بمثل تأثير رؤية وجهها عليه فقد انتفض كمن لدغه ألف ثعبان مما أخل بتوازنه فحاول التشبث بأى شئ تصل إليه يده، لكنها لم تصطدم سوى ببعض الكؤوس بجانبه فسقط أرضًا والكؤوس تتكسر من حوله وشظاياها تغطى جسده وبعضها أصاب ذراعه بجراح طفيفة متفرقة، لم يبد عليها التأثر بما حدث.. فقط مدت له يدها بلا مبالاة فأمسك بها لتساعده على النهوض والعودة لكرسيه ناظرة إلى الساقى الذى بدا أنه يهم بقول شئ ما :

- لا تقلق سيعوضك عن كل ما حطمه.. أنا أضمنه .



فعاد الساقى إلى عمله ممتعضًا ناظرًا إليه شذرًا دون أن ينبس بكلمة، أما هو فكان مازال عاجزاً عن النطق من شدة المفاجأة وقال محاولًا التغلب على انفعاله:

- غير معقول!.. أنتِ!.. أنتِ..!.

عادت تُشعل سيجارة جديدة بمجرد أن أطفأت الأولى وقالت :

- ما هو غير المعقول؟.. أن تجدنى هنا مثلاً ؟!.

- إحم .. أقصد أن المكان يعنى ....

صاحت به قائلة وهى تلوح بسيجارتها :

- المكان ؟! .. ماذا تعرف أنت عن هذا المكان، ماذا ترى؟! هه ؟!.. ترى مجموعة من المهمشين والصعاليك والمنبوذين والفشلة أليس كذلك؟! .. تستغرب وجودى بينهم وأنا الفتاة الأرستقراطية المدللة، أوتعلم يا ناجى؟، هذا المكان الذى تستحقره يعتبر أنظف مكان عشت فيه فى حياتى.. هنا فقط وجدت الحقيقة دون نفاق أو عنصرية كالتى نراها خارجه.. كل واحد منا يعيش حياته كما يتراءى له دون أن يخشى أحكاماً مسبقة من الآخرين.. لن يسألك أحدهم من أنت وماذا تعمل؟.. لن ينظر لك أحدهم نظرة نقص أو تلتمع فى عينيه الشماتة لأنك تأخرت بالزواج أو طُلِقت أو لم تجد عملاً.. لن يستغلك باسم الحب ثم يلقى بك فى أقرب سلة نفايات.

كان قد تمالك أعصابه نوعًا ما فردَّ قائلًا :

- ولكن كيف وصلتِ لتلك الحالة ؟.



- تلك الحالة ؟

قالتها باستهانة وسخرية وهى ترددها بضع مرات كأنها تلوكها بفمها قبل أن تجيب :

- تلك الحالة؟.. أتقصد أشرب وأدخن ومتحررة من كل القيود الاجتماعية البالية ؟، ربما ترانى عاهرة كذلك.. أهذا ما تراه؟

- لا أقصد ولكن .... .

قاطعته صارخة بتوحش:

- لا تكذب، حذار أن تفعل، أنت تعرف أننى سأكشف كذبك بنظرة واحدة، لا تشوه الباقى من صورتك بنظرى.

لم ينبس ببنت شفة بعد قولها وخيم الصمت على الغرفة، لم يعرف بماذا يمكن أن يجيبها.. بل لم يعرف بماذا يفترض أن يشعر، أيحزن لما آلت إليه أمورها أم يفرح لأنه ما زال - ورغم افتراقهما لأعوام - هناك بقايا منه بداخلها؟، صمتت هى الأخرى لصمته وساد بينها حوار صامت طويل وأخيرًا قطع هو هذا الصمت قائلًا بصوت حاول أن يجعله هادئًا وقد غافلته دمعة ترقرقت فى عينيه حاول جاهدًا أن يمنعها من السقوط بمعجزة وخرج صوته رغمًا عنه باكيًا:

- نادرة .. أنا لم أتمنَ شيئاً فى حياتى بقدر ما تمنيت أن تكونى زوجتى .

نظرت له هازئة وقالت بسخرية :

- وماذا فعلت ؟



- ماذا؟

في لحظات تحول هدوءها وسخريتها إلى غضب عارم وقد تقلصت ملامحها فبدت كلبؤة جريحة غاضبة تكاد تفترسه بأنيابها وقالت صارخ:

- ماذا فعلت لتحصل عليّ؟.. أنت حتى لم تصارحني بحبك .. مع أني كنت في أشد الحاجة لسماعها، تركتني هه.. خِفت أن تُرفض؟.. خِفت على كرامتك أن تخدش أليس كذلك ؟!

- نادرة .. أنا ... .

- اخرج .

صمت كتلميذٍ خائبٍ يوبخه أستاذه لأنه لم ينهِ واجباته المدرسية، ولكن صمته استفزها أكثر فصرخت:

- اخرج، فلتذهب إلى حيث جئت، لا أريد أن أراك ثانية.. أتفهم؟!

نهض بتثاقل متحاملاً على نفسه وشعر كأن جسده يزن آلاف الأطنان، وأخرج من جيبه ورقة من فئة المئتين وناولها إلى الساقي متحاشياً النظر إليه، ومشى خطوات قليلة وهو يحرك قدميه بصعوبة بالغة.. و.. وسقط.. قدماه لم تعد تقويان على حمله.. الألم يسحق كتفه الأيسر.. قلبه ينبض بسرعة كأنه قطار فقد مكابحه فانطلق بأقصى سرعة نحو الهاوية.. رأى شريط حياته يمر أمامه كشريط سينمائي.. رأى لحظاتهما معًا.. كان يشعر أن ثَمَّ ارتباكًا حوله وأن حوله وجوها كثيرة



لكنه لم يميز سوى وجهها.. لم يشعر سوى بذراعيها تحتضنانه وهى تقول شيئًا ما لم يستطع تميزه لكنه شعر بجسده يسترخى ويغوص فى عينيها الفيروزيتين.. يحاول أن يقول شيئًا ما لكن لسانه أثقل من جبل.. يحرك شفتيه جاهدًا بلا جدوى.. و..

- نادرة .

يهب من رقدته هاتفًا باسمها ليجد نفسه مازال ملقى على أرضية تلك الفيلا منذ أن فقد وعيه وأمامه عائشة تدخن سجائرها وابتسامتها الساخرة معلقة على شفتيها كما هى وقالت :

- استيقظت أخيرًا .

- ماذا يحدث هنا؟! .. ماذا تفعلين بى؟

- لم أفعل شيئًا بعد.. أنت فقط ضيفٌ فى عالمى حتى تنتهى اللعبة.

قام وهو يتحسس رأسه محاولاً إسكات تلك المطارق التى تدق بعقله ليستطيع التركيز فيما تقول هذه الشمطاء وقال :

- أى لعبة ؟

- كما أخبرتك أنت هنا فى عالمى ولن تستطيع العودة مهما فعلت.. والحل الوحيد لعودتك هو أن تلعب لعبتى.

تملك الغضب من ناجى فصرخ بها :

- أى لعبة حقيرة تلك ؟

تعمدت إثارته أكثر بضحكة ماجنة وقالت :



- لا تكن سريع الغضب يا عزيزى.. أخبرنى أولًا هل رأيت نادرة؟

- نادرة؟.. كيف تعرفين نادرة؟ وما شأنها بلعبتك؟

- لا تكن غبياً.. أنا أرسلتك إلى هناك لترى ما وصل إليه حالها.

- تقصدين أنّ .... مستحيل .

نظرت له بصرامة وهى تقول بصوت كالجليد أطلق القشعريرة فى جسده:

- نعم يا ناجى.. لم يكن حلماً .

- ولكن هذا مستحيل.. أنا أعرف أنها تزوجت وتعيش حياة سعيدة مع زوجها وابنتها.

- أرأيت أنك مازلت تهتم لأمرها وتعرف أخبارها؟ .

أطرق ناجى برأسه فى صمت ولم يجب.. ربما لأنه لم يستطع إنكار هذه الحقيقة.. فرغم زواجه وزواجها وطوال هذه الأعوام لم يتوقف يوماً عن تقصى أخبارها.

تركته يواجه نفسه للحظات قبل أن تخرجه من شروده قائلة وهى تعتدل بجلستها وكأنها بصدد شرح محاضرة علمية له:

- والآن استمع لى جيداً، هذه الفيلا مليئة بالغرف.. وبداخل كل غرفة جزء منك.. جزء من ذاكرتك التى انتزعتها منك أثناء فقدانك الوعى.. كل ذاكرة بها قرارٌ خاطئٌ اتخذته.. كل ما عليك أن تعود لهذه الذكريات مرة أخرى وتحاول اتخاذ القرار الصائب.. إذا نجحت فى تغيير قرارك ستعود لعالمك الذى تعرفه أما إذا فشلت..



صمتت لحظة لترى تأثير كلماتها عليه ثم أردفت:

- ستبقى معى هنا للأبد .

لم يعد هناك ما يقال بعد ما قالته عائشة لذا فقد نهض ناجى متحاملاً على منضدة صغيرة بقربه واتجه نحو الأريكة التى كان جالساً عليها حين جاء ووضع رأسه بين كفيه كعادته إذا استغرق فى تفكير عميق ثم قال :

- هل لى فى بعض العصير ؟

- بكل سرور.. اعتبر "البيت بيتك " كما تقولون فى مصر .

صبت له كأساً ممتلئةً وناولته له فأمسكه بيد مرتعشة وقرَّبها من شفتيه ببطء وقال :

- أود أن أسأل سؤالاً يحيرنى.

- تفضل.

- كيف تكونين امرأة عصرية وتدعين أنك عائشة التى لابد أنها ماتت منذ زمن بعيد.. وثمَّ شئ آخر أيضا.. حين سألتك عن تلك اللوحات قلتِ: أنها لأسلافك، ولم أفهم ماذا تقصدين حينها.

- أنت قبلت أن تلعب لعبتى لذا صار من حقك أن تعرف.. أنا فعلياً حفيدتها.. لقد نجحت جدتى بطريقة ما - لن أخبرك عنها بالطبع - أن تنسخ ذاكرتها لجنينها الذى كان أنثى وحين كبرت علمتها كل فنون السحر التى تعلمتها وهكذا صرنا نتوارث أسرارها .



أنهى ناجي عصيره ووضعه على المنضدة الصغيرة دون أن يرد بكلمة، واتجه متثاقلًا ناحية أول غرفة في أقصى اليمين، وأمسك بمقبض الباب بشدة كأنه سينتزعه من مكانه ثم اندفع داخلاً الحجرة وأغلق الباب بمجرد دخوله وانتظر بدء ذاكرته الأولى .

* * *



(الفصل التاسع)

الذاكرة الأولى: ما قبل نادرة

بمجرد أن أغلق ناجى الباب بعد دخوله حتى غلفه ظلام دامس، وارتجت الغرفة من حوله كمرجل يغلى فسقط أرضًا رغم محاولاته المتكررة للوقوف، وخيل إليه أن سقف الغرفة يقترب منه فى سرعة فضم ذراعيه محاولًا حماية رأسه، ثم انتهى كل شئ.. فجأة وبدون مقدمات تلاشت الغرفة ووجد نفسه فى مكان يعرفه.. بل يحفظ كل تفصيلة فيه.. إنها كلِّيَّته.. نعم.. وتحديداً أول يوم فى دراسته الجامعية.. يتذكر ذلك اليوم جيداً، كانت النشوة تجتاح جسده المراهق الفتى.. وجد نفسه يبتسم وهو ينظر لنفسه بافتتان فى زجاج إحدى السيارات وقد ارتدى ذلك القميص " الكاروه" وجينزاً أسودًا وحذاءً أسودًا أيضاً.. بدا وسيماً للغاية أو هكذا ظن، عاد يمشى بتمهل بين أروقة الكلية، لم يكن أى من الطلبة أو الدكاترة قد جاء.. هو الوحيد الذى قاده حماسه لأول يوم جامعى إلى أن يأتى .

ها قد أتت الجامعة بكل ما تحمله من وعود وأمانىّ.. ربما هنا يستطيع تحقيق غايته.. أن يثير إعجاب فتاة ويستطيع التحدث معها بلا خجل.. فقد كان رغم طلاقة لسانه ولباقته يعجز تماما أن يحدث إحدى



زميلاته دون أن يتعثر، ففى كل المجموعات الدراسية أثناء دراسته الثانوى يجد أصدقاءه يتحدثون مع زميلاتهم ويمرحون وربما يقع بعضهم فى الحب إلا هو.. لطالما حاول وحاول مرارًا دون جدوى.. فبمجرد أن تنظر له فتاة حتى يجد الدم يتصاعد إلى وجنتيه ويشيح بوجهه بعيداً عنها، تملك منه الشعور بالعجز وشعر أنه أقل من الآخرين واهتزت ثقته بنفسه كثيراً، لذا فقد كان يرى أن الكلّية هى فرصته الأخيرة والسانحة ليتغلب على خجله ويستعيد ثقته بذاته.

شهورٌ مرت دون أن يحرز أى تقدم نحو غايته حتى بدأ يفقد الأمل ويدب اليأس إلى قلبه ولكنه لم يتوقف عن المحاولة.. كان مُصِرّاً إصراره على الحياة ذاتها.. لم يكن الأمر مجرد التعرف إلى فتاة بل فقط ليثبت لنفسه أنه يستطيع.. أنه ليس عاجزاً، لذا ونتيجة تلك الإرادة الصخرية نجحت أولى محاولاته للتعرف إلى فتاة، فإذا كان أول الغيث قطرة فقد صارت نُهى هى تلك القطرة وبعدها انهمر المطر.

قصيرة.. تميل إلى البدانة.. ساذجة.. تمتلك روحا حلوة المعشر.. ترتدى عوينات تكاد تخفى عينيها، لم تكن هى أجمل فتاة يمكن للمرء أن يتعرف عليها ولكنها تصلح كبداية، يتذكر أول تعارف بينهما في إحدى المحاضرات وقد احتشد طلاب دفعته فى قاعة ضيقة، وبالطبع لم يجد الكثيرون وهى منهم مكاناً يصلح للجلوس، لذا فقد دفعته شهامته - ليس



إلا - أن يدعوها للجلوس بجانبه وأفسح لها مكانًا مناسبًا فنظرت له شاكرة وبدآ يتجاذبان أطراف الحديث؛ ليكتشفا أن ثمة أشياء كثيرة تربط بينهما .

كما أخبرتك مسبقاً.. كانت "نُهى" أول الغيث.. فبعد يومين على تعارفهما وجدها تقدم إليه صديقتها "داليا" التى تشاركها قصر القامة، أعتقد فى بداية الأمر أنها معرفة عابرة ولكنه فوجئ بنُهى فى اليوم التالى تخبره أن داليا قد سألت عليه، الأمر الذى أثار تعجبه بشدة وربما لم يصدقه أيضاً وتجاهل الأمر.. تكرر سؤال داليا عنه ثلاثة أيام متواصلة دون أن تسمح الصدفة أن يقابلها وفى اليوم الرابع رأته فجاءت إليه مسرعة قائلة :

- ناجى .. كيف حالك ؟!.

- الحمد لله بخير.. وأنتِ؟.

- الحمد لله.. أين كنت ؟، سألت عنك كثيراً.

أجابها ضاحكاً :

- أنا موجود دائما حيث يتواجد الجميلات مثلك.

أشاحت بوجهها خجلاً وقد تخضب بدماء الحياء وقالت :



- أنت مجامل للغاية .

علَتْ ضحكته وقد تملكت منه ثقته بنفسه وقال ممازحاً :

- لم يتّهمنى أحد بحسن الذوق والمجاملة من قبل.

الآن بدا الأمر واضحاً.. داليا منجذبة إليه.. لقد صار شخصية متألقة وشعبيته تزيد يومًا بعد يوم، فعلى الرغم أنه لم يكن أوسم شباب دفعته أو أكثرهم أناقة إلا أن حضوره الطاغى وشخصيته الآسرة وثقافته ورزانته كلها أمور ساعدته ليصبح من أكثر دفعته شعبية وكانت علاقاته متعددة مع مختلف التجمعات أو كما يطلق عليها بين الشباب "الشِلَل " .

تدريجيا توسعت شلته حتى صارت من أكثر الشلل عدداً وتنوعاً.. نهى.. داليا.. عبير.. لبنى.. أحمد.. تسنيم.. الكثير من الأسماء والوجوه المحفورة فى ذاكرته، حبات عقد متناثرة لا يعرف كيف جمعها خيط شخصيته، ففى كل صباح يصل مبكراً ويتجه نحو كافتيريا الكلية يحتسى قهوته وينتظرهم وهم ينسابون واحداً تلو الآخر، ويمضى اليوم تلو الآخر على نفس المنوال بين مناقشات وأحاديث يكون هو بطلها أو محورها، وربما يلعبون تلك اللعبة الشهيرة التى يسمونها "الصراحة ".. حيث يدير هو زجاجة بلاستيكية بقوة لتدور حول محورها حتى تقف مشيرة إلى أحدهم فيسألونه وعليه أن يجيب بصدق..



- ناجى .. أريد رأيك فى أمر هام.. هل من الممكن أن نتمشى قليلاً؟

قالتها داليا وهى تنظر له نظرة ذات مغزى.. لكنه قرر أن يتجاهل نظرتها وقال:

- حسناً لا مشكلة، أستميحكم عذراً يا شباب، سنعود بعد قليل.

وبطرف عينه شاهد أساريرها تتهلل وكأنها حصلت على كنزٍ ثمينٍ وقامت تمشى إلى جانبه صامتة فقال وهو يتصنع الجدية :

- خير يا داليا.. ماذا هناك؟

نظرت إليه وفى عينيها لمعان غريب وقالت :

- لا شئ، فقط أردت أن نتمشى ونتحدث قليلاً.. هل هذا ممكن؟.

ضحك ضحكة مجلجلة لم يسمعها سواه .. فَفَهْمه لطريقة تفكيرها جعله يعرف أنها لا تريد أن تمشى أو تتكلم معه كما تدعى.. كل ما فى الأمر أنها أرادت أن ترسل رسالة للأخريات أنها تستطيع انتزاعه منهن.. وأنهما قريبا ستجمعهما قصة حب ملتهبة يتحاكون بها فيما بينهم، والحقيقة أنها لم تكن الوحيدة التى تفعل ذلك.. فبمجرد عودته "للشلة" مرة أخرى.. قامت "عبير" بنفس ما سبقتها فيه "داليا" وكأنها هى الأخرى ترد عليها أنها هى من ستحصل عليه فى النهاية .



أرضى ذلك غروره بشدة وانتفخت أوداجه بفخر ذكورى عتيد حين تتصارع عليه الإناث، شعر فى تلك اللحظة أنه حقق ما يتمناه.. بل لن يبالغ إذا ظن أنه حصل على أكثر مما كان يتمنى بالفعل.. فها هو تربطه الصداقة مع العديد من الفتيات بل ويتصارعن أيهن تستطيع أن تلفت نظره ناحيتها.. لقد أثبت لنفسه أنه يستطيع.. فهل آن أوان التوقف عن هذا العبث؟.. بالطبع الإجابة لا.. أيترك كل هذه النشوة ويعود راهباً فى محراب الثقافة من جديد؟!.. ظل ينهل وينهل من الرحيق الأنثوى المسكر ولم يترع قط.. فقط حين ظهرت "نادرة" للمرة الأولى فى تلك الشلة اختلف كل شئ .

*　*　*

" فقبل عشرين عامًا عرفتْ " ناجى" عن طريق صديقة لها قدمته إليها، وما أن بدأ يتحدث حتى لفت انتباهها.. يتحدث بثقة.. بعمق.. وبغرور.. لا تشبع أذنك من سماع حديثه الذى لا ينتهى ولا تكف عينيك عن مراقبة ضحكته وانفعالات وجهه.. استفزها غروره فأبت إلا أن تواجهه برأيها فيه.. تذكر وجهه وقد ألجمته الدهشة والمفاجأة وهى تصب عليه جام حنقها ثم اتسعت ابتسامته لها فامتصت غضبها "

*　*　*



- ها قد عدت .

فتح عينيه فوجد أنه ملقى أرضًا فى صالة الفيلا وليس فى الحجرة وأمامه عائشة على الأريكة تدخن سيجارتها كالعادة.. بدا له الموقف مألوفًا كأنه مر به من قبل وقال :

- ماذا حدث ؟!

أطلقت ضحكتها الساخرة التى اعتادها وقالت :

- لقد فشلت يا صغيرى.. كان أمامك قراران بإمكانك تغييرهما، وهى فرصة لن تتكرر ثانية بالمناسبة.

- أى قراران ؟

- الأول أن تلغى فكرة أنك ستصبح عاجزاً إذا لم تتعرف إلى فتاة.. فلم يكن هذا ليشينك أبداً، لكنك كنت تود هذا من صميم قلبك وتحاول أن توجد له المبررات الأخلاقية للقيام به.

نظر لها مشدوها وعلامات التعجب ترتسم على وجهه بقوة، فكيف بإمكانها أن تسبر أعماقه وتكشف أدق أسراره إلى هذا الحد؟!..

- والثانى ؟!

- الثانى أنك قمت بما كنت تدعيه بالفعل، فقد أثبت لنفسك فى مرحلة ما أنك تستطيع وكان بإمكانك إيقاف كل شئ والعودة للطريق الصحيح.. لكنك فضلت أن تتبع غرائزك حتى قادتك إلى ما وصلت إليه.. لقد غويت وأغويت فلا تدّعِ الفضيلة بعد ذلك وتظن أنك برئ .



- حسناً .. والآن ماذا ؟.

- لا شئ.. حينما تشعر أنك مستعد يمكنك أن تجرب غرفة أخرى.. لكن من واجبى أن أحذرك أن الموضوع سيزداد صعوبة فى كل مرة.. فقرارتك كسلسلة متصلة الحلقات لن تستطيع أن تزيل واحدة دون الأخرى.

ضحك ساخراً من قولها وقال :

- كم أنا محظوظ.. فحين قابلت شيطانة اتضح لى أنها شيطانة تلتزم بالأمانة.

نظرت له بغضب ارتعدت له فرائصه بالفعل إلا أنه فوجئ بها تبتسم وتقول فى هدوء :

- أى غرفة ستجرب ؟

قام من فوره دون أن يجيبها واتجه ناحية الغرفة الثانية على الجانب الأيسر. ما أن دخلها حتى تكرر ما حدث بالغرفة الأولى تماماً. وبدأ رحلته مع ذاكرته الثانية.. وقراره الثانى.. الأصعب.

* * *



(الفصل العاشر)

الذاكرة الثانية نادرة

هذه المرة هو يتجول مع نادرة داخل الحرم الجامعى لأول مرة ولم يمض على تعارفهما سوى يومين، إنها مرحلة الاستكشاف التى يمر بها أى شاب وفتاة فى بداية تعارفهما.. عادة يبدأ الأمر بومضة إعجاب كفلاش الكاميرا، ربما كانت هذه الومضة موقف شهامة من الفتى أو رقة وحنان من الفتاة أو إعجاب بالشخصية.. المهم أنها ومضة كالشرارة الأولى التى اكتشف بها الإنسان النار لأول مرة ثم يتولد منها شغف وفضول لمعرفة هذا الآخر الذى أثار إعجابنا فتبدأ مرحلة الاكتشاف، نتقارب وتدور بيننا أحاديث مطولة تتناول كل ذرات الكون وتشارك فى هذا الحوار حواسنا كلها.. فتتكلم أعيننا بحوار صامت نكاد لا نفهمه ولكننا نستشعره، وتتحرك أيدينا بملامسة لا شهوة فيها سوى نشوة الملامسة ذاتها.. ببطء نجد أنفسنا ننجذب ويتكون رابط بيننا كالحبل السرى لا انفصام له وبمرور الوقت يتولد الحب.. ومن الحب تتولد حياة جديدة.. وبداية جديدة.. وتلك كانت بداية "نادرة".

- ناجي .. أود أن أخبرك بشىء ما .

قالتها وقد بدا فى عينيها الكثير من التردد والخوف من المجهول ..

- قولى.



- لابد أن نتفق منذ البداية.

نظر لها متعجباً ثم تساءل :

- علام ؟!!

- أننا مجرد أصدقاء فحسب..

you are my best friend but only friends.

أخذته المفاجأة للحظات لم يدرِ فيها بم يرد، فهو لم يفكر في هذا الأمر من قبل، كان مستمتعاً بعدم وجود مسمًّى لعلاقتهما؛ فهى مزيج من الصداقة والحب والانتماء، ولكنها تريد الآن أن تضع النقاط على الحروف، وأخيراً قطع صمته قائلاً بمرح زائف يخفى ما يعتمل فى نفسه:

- بالتأكيد، وأنتِ أيضاً أقرب صديقة لى.

علّقت ابتسامة باهتة على شفتيها كما لو أنَّ رده قد أحبطها وقالت:

- اتفقنا.

قالتها وعدنا نتكلم، ورغم أننى كنت بدأت أحبها إلا أننى لم أعارضها، ربما ظننت أنى سأخسرها إذا لم أوافقها، تحدثنا كثيرًا حتى بدأ باقى "الشلّة" يتصلون يتعجلوننا للعودة فلم نجد مفراً من العودة على مضض، وما إن عدنا حتى ابتدرتنا داليا قائلة والغيرة تطل واضحة من عينيها وهى تحاول أن تضفى روح الدعابة على كلماتها:

- مازال الوقت مبكراً يا نادرة .. يبدو أنكما نسيتمونا.

نظرت لها نادرة وابتسمت ابتسامة صفراء، فى حين أَجَبْتُ:



- لا، ولكننا كنا نتحدث بموضوع هام.

ثم قلتُ محاولاً تغيير دفة الحوار:

- ألن نحضر المحاضرة ؟

- المحاضرة تم إلغاؤها.. لماذا لا نذهب إلى الكافيتريا؟.

أجابت نادرة:

- اعذرونى، لن أستطيع المجئ معكم، يجب أن أعود للبيت.

تنحيت بها جانباً بعيداً عن أسماعهم بينما نظراتهم تكاد تخترق جلودنا من حدتها وقلت :

- أرجوكِ لا تنزعجى منهم، أنتِ تعرفينهم جيداً، وتعرفين أنهم يريدون إغاظتك.

- لا عليك.

قالتها وانصرفت وقد انصرف معها عقلى وقلبى بينما عدت إليهم بجسدى، وعادت الأحاديث تتناثر على الطاولة وقد بدا عليهن الارتياح لانصرافها.. ووسط انشغال الجميع بالمشاركة فى ذلك الحوار، وجدت عبير تميل ناحيتى هامسة بِغِلٍّ :

- من الواضح أنها تحبك للغاية.

من جديد تمر أيام لا أحصيها ولا أتذكرها ولكننى أجدنى فجأة فى ذلك اليوم الذى شهد أحد الاختبارات العملية التى يجب أن أجتازها.. يومها لم أكن قلقاً فلم أكن من تلك الشخصيات التى تتوتر لمجرد أن تؤدى اختبارًا دراسيًّا، ولكن ما أدهشنى يومها هو قلقها هى.. شعرت



بأعصابها تحترق قلقاً من أجلى وقد أثار غيظها هدوئى، بدت لى فى تلك اللحظة كأمٍّ تخشى على صغيرها، صدق مشاعرها جعلنى أحلق فى عالم آخر من الحب، نعم.. ففى تلك اللحظة أحببتها حتى أخمص قدميَّ.. وقد بدا قلقها للجميع فلم تخش أن تظهره أمام الجميع حتى أننى وجدت داليا تنفرد بى قبل الاختبار بلحظات قائلة :

- ماذا بها ؟.. كلنا نهتم بشأنك وينتابنا القلق عليك، لماذا تفعل كل ذلك ؟.

الكل يعلم الآن أننا عاشقان حتى وإن لم نعلنها ولكن منذ متى يستطيع العشاق إخفاء عشقهم؟!.. صرنا مادة للحديث بينهم.. الكل يتكلم والكل يسىء معاملتها؛ لأنها فى نظرهم من اختطفت الأضواء منهن.. وبالتالى كثرت المشاكل بيننا، فقد نجحوا أن يبذروا الشقاق بيننا حتى انقطعت علاقتنا ببعض تماماً، مرة أخرى تمضى الأيام لا أعرف كيف.. غريب أمر عائشة هذه كيف انتقت ذكرياتى بهذا الشكل وتنقلنى من ذاكرة إلى أخرى.. الأمر يبدو حلمًا ولكنى أعرف أننى لا أحلم.. إدراكى تام لما حولى وأستطيع التفكير بشكل مستقل عن ذاكرتى.. دعنا من هذا الأمر الآن ولنرَ إلى أى ذاكرة قادتنا تلك الملعونة .

اليوم عيد ميلادها.. لن أستطيع الحضور بالطبع فهى لم تدعونى ولا أظنها تفعل..

- ناجى، أين كنت ؟.. مضى وقت طويل منذ آخر مرة التقينا.

- أهلا هويدا، كيف حالك؟



- أنا بخير الحمد لله.. ألن تحضر حفل عيد ميلاد نادرة؟

الآن اتذكر.. طبقاً لذاكرتى فقد رفضت حضور حفل عيد ميلادها لأنها لم تدعنى.. ربما كان هذا هو القرار الذى يجب أن أغيره.. القرار الذى ربما يعيد " المياه إلى مجاريها " وبعدها يتغير كل شئ وأعود إلى عالمى.

- أكيد سوف أحضر إن شاء الله.

ارتسمت الدهشة على ملامحها وهمّت بقول شىء ما لكننى لم أستطع سماعه. ففى اللحظة التى كادت أن تنطق فيها وجدت أن كل شئ يهتز من حولى واختفت الموجودات لأجد نفسى فى ظلامٍ دامسٍ لا أرى فيه كف يدى وحين عادت إلىّ الرؤية من جديد، وجدتنى عدت إلى الفيلا مرة أخرى. هذه المرة كانت عائشة تحضر عشاءً خفيفاً.. فقال حانقاً :

- أنتِ تغشين؟.

ارتسمت على شفتيها ابتسامتها الساخرة المعتادة وقالت بهدوء :

- لماذا؟

- لقد كدت أن أغير قرارى بعدم الحضور، وحينها كان يمكننى العودة ولكنك أحضرتنى هنا قبل أن أتم الأمر.

أطلقت ضحكة عالية وهى ترجع رأسها إلى الخلف فبدت شيطانية فى تلك اللحظة وقالت :

- كم أنت ساذج يا صغيرى.. هل تظن الأمر بهذه البساطة؟.

- ماذا تعنين ؟



نظرت له بينما يديها مشغولتان بتقليب البيض فى مقلاة صغيرة وقالت بجدية:

- الأمر ليس عشوائياً كما تظن.. أنت لا يمكنك تغيير ما حدث بالفعل.. ولكن يمكنك تغيير قراراتك.. وقرارات محددة مصيرية شكّلت حياتك كلها حتى وصلت إلى هنا.. كما أننى لا أحضرك كما تتخيل.. فبمجرد أن تنتهى الذاكرة تعود إلى هنا تلقائياً.. أنت حر تماماً فى هذه اللعبة يا صغيرى.. لا سيطرة لى على شئ على الإطلاق.

- ما زلت لا أفهم .

- حسناً سأشرح لك.. هل أنت جائع؟.

أطرق برأسه صامتاً .. ففى الحقيقة أنه كان يتضور جوعاً.. فقالت بابتسامة صافية هذه المرة:

- لا تخجل أنت فى بيتك كما أخبرتك من قبل.. دعنا نتناول عشاءنا بينما أشرح لك الأمر.

جلس إلى المائدة بينما تنتقل هى بينها وبين المطبخ لإحضار الطعام وطبق ملئ بالفاكهة وقالت:

- فى أى كلية تخرجت يا ناجى ؟

- كلية السياحة والفنادق.. لماذا تسألين ؟

- هل اخترتها ؟.. أقصد هل كان هذا قراراً بإرادتك الحرة ؟.

- بالتأكيد .



- جيد .. لنفترض أنك فى اللحظة الأخيرة اكتشفت أنه ليس القرار المناسب وأن ثمة كلية أخرى هى الأفضل لك.. ماذا ستفعل ؟.

- سأغير قرارى بالتأكيد وأختار الكلية الأفضل .. بل إن هذا ما حدث فعلًا.. فقد كان قرارى فى البداية الالتحاق بكلية الآداب وبعدها فضلت السياحة.

- رائع .. وهذا هو المطلوب منك تحديداً.. فكّر فى قراراتك بتلك الطريقة وستجد الحل.. دائما ما يكون أمامنا خياران أو أكثر وباختياراتنا تتشكل حياتنا بالتدريج عن طريق تراكم هذه القرارات.. ألم تسأل نفسك ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنك التحقت بكلية الآداب؟!.. سيتغير كل شئ.. لن تكون أنت أنت.

- يا إلهى.. هذا يبدو معقداً للغاية .

- أرأيت؟.. ولكنك ستصل فى النهاية يا ناجى.. فقط فكر جيداً فى كل اختياراتك واحتمالات تغييرها.

أنهى عشاءه واستلقى على الأريكة يفكر فيما أخبرته به، ناولته تفاحة حمراء داكنة وقالت:

- كُلْ هذه.. ستساعدك على التفكير.

نظر لها وتناولها منها ببطء وقضم منها قضمة فوجد مذاقها حلواً كالعسل.. فقالت :

- ألا يذكرك هذا الموقف بشئ ما ؟

قال وهو يقضم قضمة أخرى من التفاحة :



- همهممم .. بماذا؟

- بتفاحة آدم.. التفاحة التى أهدتها حواء لآدم فكانت سبباً فى خروجهما من الجنة وصارت بعدها رمزاً للإغواء.

شعر بغصة فى حلقه إثر جملتها الأخيرة مما جعله يسعل بشدة قبل أن يتمالك نفسه ويقول :

- ماذا تقصدين ؟.

ابتسمت ببساطة وهى تقول:

- لا شئ.. مجرد خاطر مرَّ ببالى.. والآن هل ستجرب غرفة أخرى؟.

- لا ليس الآن .. أحتاج لبعض الراحة والتفكير.

- لا بأس .

لم يسمعها فقد قال جملته الأخيرة وانطلق عقله يفكر ويحلل كل ما مر به وعاد به إلى ذكريات بعيدة .. ذكريات ليس فيها أى قرارات أو اختيارات أو عائشة .

* * *



(الفصل الحادى عشر)

ذكريات طفولية

جدى يحتضر.. هكذا أخبرونى حين كنت فى العاشرة.. كان جدى شيخ إحدى الطرق الصوفية المنتشرة فى مصر ومن أكثرها عدداً أيضاً.. كثيراً ما اصطحبنى إلى تلك اللقاءات التى يسمونها " الحضرة " حيث يتحلق عدد كبير من المريدين والمحبين فى حلقة كبيرة وعلى رأسها جدى يرددون الأدعية والأوراد وأشعاراً فى مدح النبى وحب الله.. لكم سحرتنى الحضرة وأنا أردد بلسان متلعثم الأوراد والأبيات وجدى يحتوينى فى عباءته البيضاء.. ما زلت إلى الآن أذكر تلك الأبيات التى تجعلنى أحلق فى سماوات العشق الإلهى ..

والله ما طلعت شمس ولا غربت ..

إلا وحبك مقرون بأنفاسى ..

ولا خلوت إلى قوم أحدثهم ..

إلا وأنت حديثى بين جلاسى ..

ولا ذكرتك محزونا ولا فرحا ..

إلا وأنت بقلبى بين وسواسى ..



ولا هممت بشرب الماء من عطش ..

إلا رأيت خيالا منك فى الكاسى ..

مازال لحنها يرن بأذنى إلى الآن .. سنوات عديدة قضيتها فى بيت جدى يحفظنى القرآن ويعلمنى حب الله وكيف أراه بعين خيالى وأحدثه فى صلاتى.. وحين يجن الليل يحتضننى فى سريره ويحكى لى قصصاً عن الصالحين والأولياء.. حتى جاء ذلك اليوم الذى عدت فيه من مدرستى فوجدت البيت مزدحمًا بالرجال والنساء وأبى وسطهم يحدِّث هذا ويأمر تلك بألا تصرخ، وحين رآنى احتضننى بشدة ورأيت دموعه لأول مرة فى حياتى وأمسك بيدى برفقٍ وأدخلنى غرفة جدى وهو يقول :

- ادخل إلى جدك هو ينتظرك .

دخلت فرأيته وهو مستلقٍ على سريره.. رجل تجاوز التسعين إلا أنه ظل محتفظاً بتمام صحته حتى مرض موته.. بصوتٍ واهنٍ دعانى إليه.. اقتربت منه وجلست بجواره أُربّت على لحيته الكثيفة.. أحب ملمسها وأنا أعبث فى شعيراتها.. رأيته يبتسم وقال:

- ولد طيب أنت يا ناجي .. وتحب جدك، أنا أيضاً أحبك يا ناجي، فربما تكون أنت شيخ الطريقة بعد أبيك، لن تفهم الآن ماذا يعنى شيخ الطريقة لكنك ستتعلم.

تقاطعه نوبة سعال حادة حتى كادت روحه أن تفارقه بالفعل لكنه تماسك قليلاً وأردف قائلاً:

- قلبك الطاهر يا ولدى سينير لك دربك، أنت أحق واحد أن تكون حفيد " سيدى المنصور".. يوماً ما يا ولدى ستعرف من هو سيدى المنصور، وستحبه مثلما أحبه ومثلما تحبنى أنت.. هو جدك وجد جدك.

عاد للصمت مرة أخرى ربما ليتمالك أنفاسه المتقطعة ثم عاود الحديث وقال وهو يشير باتجاه خزانة ملابسه:

- ناولنى الصندوق الموجود فى خزانة ملابسى يا ناجى .

فتحت خزانة الملابس فوجدت صندوقاً متوسط الحجم، مزخرفاً بزخارف إسلامية الطراز، فحملته وناولته إياه، ففتحه وتطلع لما فيه بشوق ثم تناول منه ورقة صفراء يبدو عليها القدم مطوية بعناية شديدة وبدأ يفك طياتها شيئاً فشيئاً حتى صارت كلوحة كبيرة مرسوم عليها شجرة هائلة تبدأ باسم النبى محمد عليه الصلاة والسلام وقال وهو يقربها باتجاهى:

- انظر يا ناجى، هذه شجرة عائلتنا - عائلة المنصورى - هل ترى مَن يكون جدنا؟.. إنه سيدنا النبى عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم، وهذا الذى يليه هو سيدنا على، أما هذان فسيدنا الحسن وسيدنا الحسين.. هؤلاء أجدادك الأشراف حتى نوصل لهذه الورقة الصغيرة فى الأعلى، هل تراها ؟

نظرتُ إلى حيث يشير أصبعه فوجدت اسمى مكتوباً فيها.. وعدت أستمع إليه وهو يقول :



- نحن من آل البيت، وعندما تكبر يا صغيرى ستفهم قصدى، أما الآن فاحفظه عنى كما هو.

ثم رأيت عينيه وكأنها تغرورق بالدمع وقد اعتراه القلق وقال:

- أتعرف يا ناجى؟ أنا قلِق عليك للغاية.. أمس رأيت رؤيا أفزعتنى، رأيت أنك تسقط فى بئر لا قرار لها، وكل ما حولك ظلام ولكن ثمة نار مشتعلة أمامك على مد البصر وتناديك.. وأنت تقترب منها حتى كدت أن تلقى بنفسك فيها.. ثم رأيتنى وكأننى أجرى لألحق بك وفى يدى مشعل فأعطيتك إياه فألقيته فى قلب النار، فتوهجت بشدة وحرقت طرف ثوبك ثم أخذت تخبو.. لا أعلم تفسيراً لهذه الرؤيا، ولكن قلبى يحدثنى أن ثّمَّ خطرًا محدقًا بك لكنك ستنجو بإذن الله .

صمت قليلاً ثم بدأ يقرأ لى من كتاب بجواره :

- تذكر وقت أن تحيق بك الأخطار أن تدعو رب الأخطار وإن آن أوان موتك فقد آن.. يا ولدى إن الشر مهم للدنيا كما الخير، وصلاح الدنيا بصراعهما، المهم فى أى جانب ستقف.

رأيته وهو ينظر لى بعينين كليلتين يلوح فيها حكمة سنين عمره التسعين.. ينظر لى كأنما يرى إن كنت فهمت ما قاله أم لا .. أظنه رأى فىّ ما شجعه على استكمال حديثه رغم أنى كنت حينها ذاهلاً عما يقوله جدى فلم أفهم أكثر ما قال إلا أنه أكمل:

- أتعرف لمَ يدخل العصاة النار يا ناجى ؟!

هزرت رأسى أن لا .



فأردف يقول :

- لأن النار ليست عقاباً أبدياً فحسب، النار يا ولدى تطهر الشر.. إن كل ما يضرنا ولا نعرف كيف نتخلص منه نحرقه.. ألم تتعلم فى المدرسة أن المعادن تدخل النار فتصير أنقى وأجمل وتتشكل من جديد كما نريد؟!.. هكذا نحن.. نأتى إلى نار الدنيا كي نحترق فنتطهر ونصبح أنقى وأطهر وتشكلنا يد الله كما يحب .. فنقترب ونرتقى حتى يأتينا يقين الموت.. والنار يا صغيرى قد تكون نار الحقد أو نار الطمع أو نار الشهوة ولن تستطيع تفاديها.. فإذا شعرت بالنار تقترب منك فألقِ بنفسك فيها ولا تخشَ شيئاً.. فالنار لا تحرق من أراد التطهر.. ولكنها تحرق مَن يخشى الألم.. وأنت لا تخشى الألم .

بعدها رأيت نوراً فى وجهه وزادت ابتسامته وسمعته يتمتم بالشهادة خافتة وإذا به يشير ناحية أقصى السرير ويقول: " *وأشهد أنك يا سيدى محمد رسول الله* " .. ومات من فوره.

مررت بعدها بفترة عصيبة لا أنساها.. فلم يكن فقدان جدى هيناً على نفسى أبداً، ورغم صغر سنى آنذاك لم أنس حديثه عن الرؤيا والنار وإن لم أفهم بعد ماذا يقصد.. عجيب أمر الذاكرة هذا.. فقد أنسى ماذا أكلت بالأمس ولكنى أتذكر وفاة جدى كأنها تحدث أمامى الآن.

- ناجى .. ناجى .

أخرجنى صوت عائشة من ذكرياتى.. الحقيقة أننى بدأت أستشعر بألفة ناحيتها، فرغم المأزق التى ورطتنى فيه لم تبد لى شيطانة

إلى هذا الحد، فكرت أننى كنت أعتقد دائما أن أى ذكر وأنثى إذا اجتمعا منفردين فى مكان ناءٍ فلابد أن يتآلفا.. أظن أن هذا ما حدث بالفعل.. طال صمتى فأردت أن أزجى بعض الوقت فى التحدث إليها ريثما أرتب أفكارى للدخول إلى الذاكرة الجديدة فقلت :

- عائشة .. أود أن أسأل .

- اسأل كما شئت .

- كيف جئت إلى هنا؟.

- لقد جئت بإرادتك الحرة .

- أعلم هذا ولكن كيف؟.. أقصد أن كل ما فعلته هو شراء الكتاب!.

- هل سمعت عن تأثير الفراشة؟

- أظن أننى قرأت شيئا عن هذا الأمر.. نظرية علمية تقول: "أن من الممكن أن تتسبب رفرفة جناح فراشة فى أفريقيا إلى نشوء إعصار فى كاليفورنيا عن طريق آلاف الأحداث التى تترتب عليها" .

- بالضبط.. وهذا ما حدث.. أنت قررت شراء الكتاب ثم قررت أن تقرؤه بالقرب من البحر وبعدها قررت شراء العطر من تلك الفتاة ثم قررت أن تأتى معى إلى هنا.. إن كل قرار نتخذه يترتب عليه الكثير من القرارات التى تغير حياتنا.. لا يوجد ما يسمى قراراً منفرداً.. بل هى سلسلة طويلة من القرارت والأحداث المترابطة، فلو أنك اشتريت الكتاب



وحفظته فى مكتبتك دون أن تقرؤه لم تكن هنا معى الآن ولكنه فى ذات الوقت سيصبح قراراً بلا معنى؛ لأنه لم يترتب عليه شئ .

- أنتِ على حق .. لقد كانت قراراتى طوال الوقت .

- هل أنت نادم ؟

- أنتِ لست القرار الوحيد الذى أوقعنى فى ورطة.. أعتقد أن معظم قرارتى كانت تؤدى بى إلى المشاكل، ولكننى اعتدت أن أتحمل نتيجتها.

ساد الصمت من جديد وأنا أفكر فى كل ما يمر بى ثم خطر ببالى شيء جعلنى أقول:

- وماذا عنك؟

- ماذا عنى؟

- كيف تعيشين؟.. كيف حصلتِ على هذه الفيلا؟.. لا أظن السحر يوفر هذا المستوى المعيشى الفاخر.

ضحكتْ بشدة حتى دمعت عيناها وقالت :

- هل تظننى ساحرة من ساحرات ألف ليلة وليلة؟.. أنا لدى شركة لمستحضرات التجميل لها فروع فى كل بلدان الشرق الأوسط وأعيش حياة عادية مثلك تماماً.. أنت فقط رأيت الجانب الآخر لحياتى.

- جانب عائشة قنديشة؟

- بالضبط.

- ولماذا لا تكتفين بحياتك العادية؟



- هل تريد منى أن أفعل مثلك ؟.

- مثلى ؟!!

- نعم حين تركت مشيخة طريقة جدك وأوكلتها إلى من ينوب عنك واقتصرت على أن تهتم بشؤونها المادية فقط.. أنا لا أستطيع التخلى عن جزء من ذاتى يا ناجى وإلا ستصبح قراراتى بلا معنى كما أخبرتك من قبل.

- همممممم .

- هل لديك أسئلة أخرى ؟

- لا.. حتى الآن .

- ماذا ستفعل إذن ؟

- أظن أنه آن الأوان لأجرب ذاكرة أخرى .

قالها ونهض متجهاً إلى الغرفة الثانية من جهة اليمين فدلف إليها وأغلق الباب خلفه ليمر بكل ما يمر به عادة عندما يدلف إلى غرفة ما ليستقبل ذاكرته الجديدة.. وقراراته أيضاً .

* * *



(الفصل الثانى عشر)

الذاكرة الثالثة: الزواج هو أن ....

مثل غصنين مرسومين بخط نحيل ..
نمنا ..
ثم، لم يبق ما يكفي من الحبر لنصحو..!

جالساً إلى حاسوبى عتيق الطراز متصلاً بشبكة الانترنت محدثاً صفحتى على ذلك الموقع الشهير للتواصل الاجتماعى بلونه الازرق المميز والذى نجح فى التفوق على كل غرف الدردشة القديمة، حين فوجئت بإشعار يخبرنى أن أحدهم يطلب صداقتى، ضغطت بزر الفأرة ليظهر اسم مِن أضافنى فوجدته ميرفت صبحى، أتعجب الآن وبعد مرور كل تلك الأعوام التى عشناها سوياً أن بداية تعارفنا كان طلب صداقة عبر الإنترنت، ولكن هذا لا يعنى أنها كانت مجرد علاقة إلكترونية فحسب. فقد كان أخوها صديقاً لى.. ورغم أنه يكبرنى بعدة أعوام إلا أننى لم أشعر بذلك أبدًا حيث أننا حين نجتمع تذوب بيننا فروق السن ونتحول فقط إلى عقلين يتحاوران فى شتى مجالات الحياة .

- صباح الخير.

هكذا ظهر لى فى مربع الدردشة بعد أن قبلت طلب صداقتها فكتبت لها:



- صباح النور .

- أنا ميرفت أخت حسام.

- أهلا بالغالية أخت الغالى.

تلك كانت طريقتى فى رفع الكلفة حين أتعرف على شخص جديد.. فحياتنا أقصر من أن نقضيها فى مهاترات لنصل إلى قلوب بعضنا البعض.. كثيراً ما عاتبنى المقربون أننى أثق فى الناس بسهولة وأدخلهم حياتى بسلاسة لكنى لم ألتفت إليهم كثيراً .

- حسام كلمنى عنك كثيراً حتى أثار فضولى لأتعرف إليك.

قلت ممازحاً وأنا أكاد أرى ابتسامتها:

- كم هو رائع حسام هذا!!

أرسلت الكثير من حرف ال (هـ) تعبيراً عن ضحكها وقالت :

أحقاً ؟.

تمر بى الذاكرة طاوية بينها أياماً وشهورًا ولكننى أجدنى مازلت فى ذات الوضع أمام شاشة حاسوبى أتحدث إليها ..

- لماذا لم ترتبط بفتاة حتى الآن يا ناجى ؟

هكذا كتبت فرددت عليها قائلًا :

- لأن "أحبك" كلمة.. والكلمة سر .

- ماذا يعنى هذا ؟.

- جدى - رحمه الله - كان دائماً ما يقول لى أن الكلمة لها سر.. الكون كله خُلِق بكلمة كن، فلابد أن نحترم الكلمة ولا نقولها إلا بحقها.



- وما حقها ؟.

- حق الكلمة أن تصونها وتوفي بها وإلا تنقلب لعنة عليك، فعندما أقول لفتاة أنى أحبها، فلابد أن أقولها وأنا أقدر على الوفاء بها.

- ومتى تقولها ؟.

- عندما أحس المودة والرحمة والسكن معها، يقول الله فى كتابه العزيز "ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة". فعندما تكلم الله عن الزواج تكلم عن المودة والرحمة والسكن وأنه ميثاق غليظ، ولم يتكلم عن الحب الذى صدعتنا به الأفلام والأغانى، فكل هذه الروابط أقوى بآلاف المرات من الحب ومع ذلك تتضمنه بين طياتها، فالرحمة تحتوى بداخلها على الحب، وكذلك المودة والاحترام.

- أزعجتك كثيراً اليوم أليس كذلك ؟.

فرد مغازلاً وقال :

- لا أبداً بالعكس، أنا متعطش لسماع كل كلمة منك.

- يبدو لى أنك ستشرب كثيراً .

- لا مشكلة لدى على الإطلاق، سأشرب حتى الارتواء .

توقفتْ عن الكتابة للحظات، خُيل إليه أنها مترددة بخصوص شئ ما قبل أن تكتب قائلة:

- ولكن المثل يقول " كل شئ يزيد عن حده ينقلب إلى ضده"، أخشى أن تملنى يوماً.



- هذا لن يكون، فالمودة مهما زادت لا تنقلب أبداً.
- لا قد تنقلب شيئاً آخر.
- شئ مثل ماذا؟.
- تنقلب حباً مثلًا .

صمت قليلاً فهو يفهم تلميحها جيداً لهذا الأمر لكنه يعرف في قرارة أعماقه أنه ليس مستعداً له فهو لا يستطيع أن يتزوج الآن، ولكن يبدو أن هذا لم يوقفه كثيراً فقال بعد لحظات:

- ولنفرض .. هل يمثل لك هذا مشكلة ما ؟.

تلك مرحلة تلميحات ما قبل الحب والتى تعتبر أجمل ما فيه، التردد والتودد والانتشاء دون مصارحة ثم تأتى مرحلة الإفصاح عن الحب، تلك اللحظة التى نقرر فيها أننا وجدنا توأم أرواحنا.. وكنت قد وجدت فيها توأم روحى لذلك صارحتها بحبى فى ذلك اليوم.

الآن يجب أن أفكر فى كلمات عائشة، فهذا قرار مصيرى غير حياتى كما قالت، ولكن هل هو القرار الصحيح؟.. أم عدم مصارحتها بحبى هو القرار الصحيح؟.. الحقيقة أنه انتابنى التردد حين صارحتها بحبى، فقد كنت حينها مجرد شاب تخرج حديثاً من كليته لا يعرف عن مستقبله شيئًا ولا أملك ما يؤهلنى للزواج.. ولكن فى ذات الوقت كنت مؤمنًا بأنه إذا وجدنا توأم أرواحنا فأنه يجب أن نتمسك بهم فقد لا تأتى الفرصة مرة أخرى إذا ضاعوا منا، ولكنها لا تشبه نادرة.. صحيح أننى أحببتها ولكن مازالت نادرة منقوشة بخلايا جسدى ثم ماذا عن سمر،



لقد انقطعت أخبارها منذ فترة ولكنى ما زلت أذكرها وأحن عليها بين الفنية والأخرى، الحقيقة أننى مزدحم بالنساء.. صار قلبى أشبه بفندق ملئ بالغرف تسكنها الفتيات، أى لعنة أصابتنى بها فتنة النساء حتى أننى أعجز عن الالتفات لمستقبلى وأن أكون رجلًا لامرأة واحدة هى زوجتى وتوأم روحى، لقد صار الماضى عبئاً ثقيلاً يقيد قدمى .

أظلمت الدنيا فعرفت أن الذاكرة قد انتهت دون أن أستطع إيجاد القرار الذى يجب تغييره ناهيك عن تغييره أصلا، فتحت عينى فوجدتنى عدت للفيلا من جديد وأمامى عائشة تحتسى عصيرها المفضل وتنظر لى بعيون متسائلة فقلت لها بحنق :

- لقد أخفقت من جديد.

هل لمحت فى عينيها نظرة شفقة أم أننى واهم؟! .. سحبت نفساً عميقاً من سيجارتها وقالت :

- لا تقلق يا ناجى.. ستنجح أنا واثقة من ذلك .

صرخت فيها بغضب :

- هراء .. كل ما أسمعه منك هو الهراء .

صمتت وتركتنى وحيداً متجهة إلى المطبخ وأذناي تلتقطان صوت الأوانى ترتطم ببعضها البعض كأنها تعبث بها بلا هدف، شعرت أننى كنت قاسياً عليها.. فبالرغم من المأزق الذى أوقعتنى فيه إلا أنها لم تسئْ معاملتى لحظة بل بالعكس فهى تعاملنى كضيفٍ تحرص على راحته لذا وجدتنى أتجه ناحية المطبخ وقلت :



- أنا آسف لم أقصد .

أجابت بصوت مختنق وقالت :

- لا عليك أنا أقدر ما أنت فيه، فليس سهلاً علينا أن نتقبل الفشل المتكرر، لكن لماذا تنظر إليه كفشل؟.. إن كل تجربة تمر بها هى إضافة إلى خبراتك ستساعدك حين تأتى اللحظة المناسبة.

ربت على كتفها ممتناً، وعادت هى تنشغل بالأوانى عنى حيث تغلى بعض السوائل على الموقد مما أثار دهشتى حيث أننى لم أتعرف على كنه هذه السوائل وفيم تستخدمها بالضبط إلا أننى فضلت عدم سؤالها عنها وعدت إلى أريكتى وأنا أفكر، أما لهذا الكابوس من نهاية .

- عائشة .

ناديتها فأجابتنى بصوت لم أكد أتبينه من ضجيج أوانيها وقالت :

- نعم يا ناجى.. إذا كان لديك أية أسئلة فأرجو أن تؤجلها الآن.

هذه هى المرة الأولى منذ جئت إلى هنا يكون هذا رد فعلها ناحيتى فأوعزت السبب أنها ربما تكون ما تزال غاضبة فقلت :

- لا لن أسأل.. أريد فنجاناً من القهوة فقط .

أتانى صوتها من المطبخ الذى شعرت أنه تحول إلى ساحة حرب من شدة الضوضاء وارتطام الأشياء ببعضها وقالت :

- حسناً بكل سرور.

لم تمض عشر دقائق حتى وجدتها قادمة تحمل فنجان القهوة وتقدمه لى قائلة :



- تفضل.. أنا سعيدة لأنك بدأت تعتبر أنك فى بيتك .

- لم أكن لأشعر بهذا لولا كرم ضيافتك .

تناولت القهوة وبدأت أرتشف منها ببطء واستمتاع مما جعلها تنظر لى ضاحكة وقالت :

- لم أعرف أنك تحب القهوة إلى هذا الحد .

- أعشقها.. أعتقد أننى لو ذهبت إلى طبيبى ليحلل دمى سيجد أنه تحول إلى قهوة .

- يسعدنى أنها أعجبتك .

- أشكرك.. أرجو ألا تعتبرى سؤالى تطفلاً ولكن ماذا كنتِ تفعلين بالمطبخ ؟

- لا شئ.. وصفات للعناية بالشعر والبشرة من وصفات جدتى.

انتباتنى نوبة من الضحك حتى كاد أن يتوقف قلبى ودمعت عيناى فسعلت بشدة ثم قلت من بين ضحكاتى :

- لم أتصور أنه حتى الساحرات يهتممن بمظهرهن إلى هذا الدرجة .

نظرت لى بغضب وقالت :

- وماذا فى هذا؟.. ألستُ امرأة ككل النساء حتى وإن كنت ساحرة؟!، ثم لا تنسَ أننى أمتلك شركة لمستحضرات التجميل .

أضحكنى غضبها مرة أخرى فقلت :

- حقا المرأة هى المرأة .. حتى لو كانت عائشة قنديشة ذاتها .



تركتنى أغالب ضحكاتى حتى انتهيت ثم سألتنى بجدية :

- والآن ماذا؟.. هل ستجرب ذاكرة أخرى ؟

أجاب وهو يتحسس مقدمة رأسه مدلكاً إياها كمن أصابه الصداع وقال :

- لا ليس الآن.. لا طاقة لى لأى شئ أحتاج إلى الراحة .

أشارت إلى غرفة بجوار السلم المفضى للطابق العلوى وقالت :

- يمكنك أن تستريح فى هذه الغرفة وتنام ما شئت وحين تكون جاهزاً أخبرنى .

- بالفعل أنا بحاجة للنوم .

قلتها وقمت متثاقلاً متجها نحو الغرفة التى أشارت إليها فتبعتنى حتى اطمأنت أننى استلقيت على سريرى وألقت علىّ الأغطية. ذكرتنى بأمى - رحمها الله - حين كانت تطمئن على نومى فقلت :

- شكراً .

- لا داعى للشكر.

أغمضت عينى ورحت فى سبات عميق فلم أشعر بها وهى تطفئ الأنوار وتقول قبل أن تغلق الباب خلفها :

- نم يا صغيرى .. فما زال أمامك الكثير.

* * *



(الفصل الثالث عشر)

القافلة

" لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. إن الحمد والنعمة .. لك والملك .. لا شريك لك "

تعالت أصوات الحجيج بالتلبية فى تلك القافلة التى خرجت من المغرب متجهة نحو بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج فى رحلة قد تستغرق ما بين التسعة أشهر والسنة تبعاً لأحوال الصحراء، مئات خرجوا بزيِّ الإحرام الأبيض يلبون نداء خليل الله إبراهيم حين أمره الله أن يؤذن فى الناس بالحج فأتوه من كل فج عميق.. وأى فج أعمق من أناس خرجت أقاصى المغرب يحدوهم الشوق كأنهم خرجوا للقاء حبيب؟، ولكن إذا دققنا النظر بين الحشود قد يثير انتباهنا ذلك الرجل الذى يحيطه رجال القافلة بالإجلال والاحترام وهو يرد تحياتهم بابتسامة متواضعة ويجيب أسئلتهم بإيجازٍ دون تململ .

- السلام عليكم سيدى منصور.

- وعليكم السلام يا أخى.

فى حين يقول آخر:



- ادعُ لى سيدى منصور .

- قضى الله حوائجك يا بنى.

وهكذا لا تخلو لحظة دون إلقاء تحية أو إجابة سؤال أو دعاء لطالب، حتى إذا حان وقت الصلاة تهافت القوم لحمل ماء الوضوء إليه ثم يؤم الناس للصلاة، فإذا انتهت الصلاة اختلى بنفسه يردد الأدعية المأثورة فى ختام كل صلاة .

تابعت القافلة مسيرها يتقدمها حادى الإبل وهو يتغنى بأشعار عذبة تطرب لها إبل القافلة فتتمايل، وقد شمل الصمت أرجاء الصحراء وكأنها تشارك الحجيج الخشوع والسكينة، وما إن مالت الشمس نحو المغيب حتى علا صوت كبير الأدلاء بصوته الجهورى :

- سنخيم هنا.

وسرعان ما ردد باقى الأدلاء النداء حتى تظن أنه صدى لصوته فأناخوا الإبل فى دائرة كبيرة وأقاموا خيامهم داخل حدودها، وما إن استقر بهم المقام حتى تجمع الرجال فى حلقة كبيرة حول سيدى منصور وقال قائلهم:

- ألا تحدثنا ببعض ما فتح الله عليك يا سيدى ؟.

فتنحنح سيدى منصور واعتدل فى جلسته وقال بصوت لا حشرجة فيه فلا هو خشن غليظ ولا هو رفيع ناعم :



- الحمد لله حمداً يكافئ نعمه، والصلاة والسلام على نبينا المصطفى.. الفاتح لما أغلق.. الخاتم لما سبق.. ناصر الحق بالحق.. الهادى إلى صراطه المستقيم، أما بعد .. إن المتدبر فى كتاب الله دائمًا ما يجد وصفاً للعلاقة بيننا وبين الله ألا وهى الحب.. فطريق الله هو الحب، كلنا فيه سائرون، والغاية فيه ليست الوصول، ولكن الغاية أن نبقى على طريقه ولا تتم معرفته إلا بالحب.. فالمحب موصول والعابد مأجور.

استمر " سيدى منصور " يعظهم قرابة نصف ساعة، وظلوا يتسامرون بعدها لساعة أخرى تقريباً، وبعدما أدوا صلاة العشاء انفض الجمع وأوى كل منهم إلى خيمته يلتمس فيها بعض الراحة وأخلد الجميع النوم واضطجع سيدى منصور على جانبه الأيمن وهو يتمتم بأدعية النوم وراح فى سباتٍ عميق.

- قم يا منصور .

فتح سيدى منصور عينيه ليرى محدثه فلم يجد أحداً فنظر إلى البدر وقد استشعر أن الليل قد انتصف أو بعده بقليل، فاستعاذ بالله من الشياطين وظن أنه ربما يخيل إليه فعاد للنوم ولكنه هذه المرة سمع الصوت واضحاً ..

- قم يا منصور واتجه للتبة الشمالية.

فقام من فوره واتجه ناحية التبة التى تبعد عن مخيمهم مسيرة عشر دقائق، فلمحه أحد الأدلاء وقال:



- إلى أين تذهب فى هذا الوقت يا سيدى منصور؟

فأجابه مكملاً مسيره دون توقف :

- سأقضى حاجة لى يا بنى.

- أتحب أن أرافقك ؟.

- لا يا ولدى جزاك الله خيراً .. سأعود سريعاً.

مضى فى طريقه مسترشداً بنور البدر حتى وصل إلى تبة رملية لا يتجاوز ارتفاعها ثلاثة أمتار، وما أن اعتلاها حتى وجد عندها رجلًا يرتدى جلباباً أبيضًا وتبدو عليه سمات الصلاح والنعمة ويتمتم بالتسبيح ولكنه ما إن رآه حتى قطع تسبيحه وابتسم قائلًا :

- أهلا بأخى الذى لا أعرفه.

- السلام عليكم ورحمة الله.

- وعليك السلام.. تفضل.

جلس سيدى منصور بجانبه وقال:

- من أنت يا أخى؟.. ولماذا أتيت إلى هنا؟.

- جئت لأراك .. فقد رأيت رؤيا أفزعتنى .

- ماذا رأيت ؟.

- رأيت وكأن نارًا عظيمة اشتعلت فى طريق سيركم وينجذب إليها الناس انجذاب الهوام إلى النار فتأكلهم.. ورأيتك وأنت تذودهم عنها لكنك لا تقدر وأثناء ذلك اشتعل طرف ثوبك فألقيته فى النار فانطفأت .



ارتسم القلق على ملامح سيدى منصور وعقد حاجبيه وهو يقول:

- اللهم قنا النار وعذابها.. فما تفسير ذلك يا أخى؟

- أرى أن خطراً يتهدد القافلة وأن خلاصهم بيدك ولكنى لا أدرى كيف.

- فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين .

- أستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه .

قالها وقام من فوره هابطاً التبة وظل سيدى منصور ينظر إليه حتى غاب عن نظره فلم يجد بداً من العودة للقافلة، وما إن لاحت له القافلة من بعيد حتى استشعر اضطراباً غير مفهوم، فالقوم متيقظون على غير عادتهم، وثَمَّ قلق فى حركتهم، وحين وصل إلى القافلة أخيراً وجد مجلساً من الرجال قد انعقد وقد بدا أنهم يناقشون أمرًا جلل فابتدرهم قائلا فى قلق :

- ماذا حدث ؟

- لقد اختفى ثلاثة رجال من القافلة .

- ربما ذهبوا لقضاء حاجة لهم .

- ربما، ولكن الأدلاء يقولون: أنهم كانوا يسيرون وكأنهم مسلوبى الإرادة، وسمع أحدهم يهتف باسم عائشة .

- عائشة؟.. تقصد عائشة قنديشة .

- لا أعرف.. حتى لو كان يقصدها، هى محض خرافات فحسب .



- وماذا سنفعل ؟

أجاب كبير الأدلاء بعد صمت طال :

- سنتكتم الخبر حتى نعرف مصيرهم، وإلى أن يتم ذلك سندَّعى أنهم خرجوا لقضاء حاجة وربما فقدوا طريق العودة للقافلة. لا نريد أن نثير ذعر الناس بلا سبب، بينما نرسل بعض الرجال لاقتفاء آثارهم .

فكر سيدى منصور أنه ربما يكون هذا هو الخطر الذى حذره منه الرجل الذى قابله عند التبة لكنه لم يرد استباق الأحداث، فربما ضل الرجال طريقهم بالفعل وسيعودون بعد يوم أو يومين، أما أن يكون الأمر له علاقة بعائشة فهذا ما لم يكن بحسبانه قط .

وفى اليوم التالى أصبح عدد المفقودين أربعة بعد أن اختفى أحد الأدلاء أثناء اقتفائه أثر الغائبين مما تسبب فى انتشار الذعر فى القافلة، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، ففى كل يوم يزيد عدد المفقودين وكلهم من الرجال والشباب، ولم يجد كبير الأدلاء حلاً سوى أن يقيد كل الرجال حتى يتبين له الأمر، لم يتبق سواه وسيدى منصور الذى لم يستطع صبرًا على ما يحدث فقرر الخروج وليكن ما يكون رغم محاولات كبير الأدلاء لإثنائه عن رأيه فلم يجد بُداً سوى أن يطيعه ويتركه يرحل وهو يدعو الله فى سره أن ينتهى هذا الأمر على خير.

خرج سيدى منصور يحمل زاد يومين على ناقة أعطاها إياه كبير الأدلاء، ومضى يقطع الطريق ناحية البحر حيث شاع بين الناس أن عائشة تسكن بالقرب من شواطئ البحار ولذا يسميها بعضهم "مولاة



البحار". لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل وما هو مقبل عليه، كل ما فى الأمر أنه يجب عليه السعى وعلى الله أن يوفقه لمسعاه .

جن ليل اليوم الأول من مغادرة القافلة فأقام خيمة صغيرة مشعلا ناراً أمامها علّها تبعث فى جسده بعض الدفء وتطرد عنه هوام الصحراء ووحوشها وعقل ناقته جيداً ثم استلقى على الرمال يتأمل السماء وبروجها ويسبح الله بقلبه، كانت تلك اللحظات التى يقضيها وحده مستأنساً بالله من أحب اللحظات إليه، كاد أن يغفو لولا أنه سمع عواء ذئب قريب منه فالتفت حوله ملوحاً بمشعل فى يده فوجد ذئباً يدور حول النار ليدرس طبيعة خصمه جيداً قبل افتراسه، لم يلبث سيدى منصور أن لمح عشرات الأعين المضيئة تحدق به فقد كان قطيعاً من الذئاب توشك أن تنقض عليه .

" قل باسم الله رب سليمان حاشر الوحوش ليوم لا ريب فيه "

تردد الصوت فى عقل سيدى منصور وهو مازال يراقب حركة الذئب من حوله الذى يقترب منه شيئا فشيئًا متخذًا وضع الانقضاض فقال بصوتٍ عالٍ :

- **باسم الله رب سليمان .. حاشر الوحوش ليوم لا ريب فيه.**

تجمدت الذئاب لحظة كأنها تستوعب ما قاله.. فردد ثانية :

- **باسم الله رب سليمان .. حاشر الوحوش ليوم لا ريب فيه.**



فوجئ سيدى منصور بالذئب الذى رآه أولا يطلق عواءً طويلًا ثم ينصرف وتبعه القطيع كاملاً وكأنهم فهموا ما يقول.

حمد الله كثيراً وقام يصلى ركعتين لشكر نعمته وما أن استدار باتجاه الخيمة حتى سمع صوتاً يقول :

- ماذا تريد منى يا منصور ؟

التفت ناحية الصوت ليجد امرأة فى غاية الجمال ترتدى ثوباً أبيضًا من غير سوء وشعرها يضاهى الليل فى سواده فاستعاذ بالله وقال:

- من أنتِ ؟

ضحكت ضحكة ماجنة تردد صداها عبر الصحراء وقالت "

- أنا عائشة قنديشة التى خرجت تبحث عنها .

- عائشة قنديشة؟!.. الأمر حقيقى إذن؟.. أأنت من أغويتِ رجال القافلة؟.

أطلقت ضحكة ساخرة وقالت:

- كلٌّ يتبع شهوته يا منصور.. حتى لو كان أنت .

- أعوذ بالله من همزات الشياطين.

- لستُ شيطاناً يا منصور.. إنما خلقت فتنة كفتنة هاروت وماروت.

- أين الرجال ؟

- ذهبوا ليلاقوا مصيرهم .

- قتلتهم ؟

- عائشة لا تقتل.. فقط هم فى اختبار.. ولكن يمكننى أن أعيدهم بشرط.

- قولى .

- سأطلق سراحهم مقابل أن تأتى أنت معى وتخضع لاختبارى .

- ما هو اختبارك ؟

- ستعرف حينها.. هل توافق ؟.

- باسم الله المستعان.. أطلقيهم أولًا حتى أتأكد .

- لك هذا.

تمتمت ببعض كلمات لم يتبينها سيدى منصور ثم قالت :

- عد للقافلة تجدهم فإذا وجدتهم فعد إلى هنا فى اليوم التالى.

بالفعل حزم سيدى منصور أمتعته وعاد أدراجه حيث وجد القافلة فى حَبور وسرور، فلمَّا تساءل عن الخبر عرف أن الغائبين عادوا.. حيث وجدوهم ليلًا على مقربة من القافلة فاقدى الوعى، وقد قرر كبير الأدلاء استئناف المسير فوراً عقب استعادتهم الوعى فهو لن ينتظر حتى تحدث لقافلته المزيد من المصائب، وعبثاً حاول إقناع سيدى منصور بالذهاب معهم لكنه لم يفلح فى ذلك، فأعطاه الراحلة وزادًا، ثم احتضنه بشدة وطلب منه الدعاء ثم مضى يأمر رجاله للرحيل فى حين عاد سيدى منصور إلى حيث قابل عائشة قنديشة ونصب خيمته فى ذات البقعة وانتظر حتى جن الليل وقد تشاغل عن خواطره بذكر الله

حتى يطمئن قلبه. فإلى الآن لا يعرف ما تدبره له تلك المرأة ولا ماذا تريد منه تحديداً لكن الذى أرسله لم يكن ليضيعه.

- فى موعدك تماماً .

سمع صوتها يأتى من خلفه فالتفت لها قائلًا :

- هل تهوين أن تأتى من الخلف دائماً ؟.

تجاهلت تساؤله متعمدة قبل أن تسأله بصرامة قائلة :

- هل أنت مستعد يا منصور ؟

- لماذا ؟

- لاختبارى .

- بعون الله أقدر.. أستعيذ بالله من كل حول لى أو قوة؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله .

- ولكنه سيكون اختباراً شاقاً يا منصور.. فإلى حيث ستذهب لن تجد سوى نفسك .

ارتعش قلب سيدى منصور لمقولتها الأخيرة.. فهو دون سواه يمكن أن يفهم تلك الإشارة.. فقد كان يعلم أن أشقى شئ أن تواجه نفسك وأن تخضع نفسك.. فأشد الناس عداوة وخطراً على نفسه هى نفسه التى بين جنبيه.. ودون أن يدرى ظل يردد اسم الله اللطيف لعله يتلطف به .

* * *



يقول بعض الرواة وكتاب السير أن هناك مَن أقسم أن سيدى منصور قد أدى فريضة الحج معهم فى ذلك العام وكان منهم كبير الأدلاء وبعض رجاله الذين شاهدوه يطوف بالكعبة مع الطائفين، فى حين أن أهل بلدته يروون أنه لم يؤدها فى ذلك العام وأداها فى العام الذى يليه.

أيا كانت الرواية الصحيحة فالذى أكده الجميع أنه أدى فريضة الحج ثم استقر به المقام بمصر ولم يعد إلى مسقط رأسه قط.. حيث استقر بالقاهرة فترة من الزمن، انتقل بعدها إلى الإسكندرية وتزوج منها وأنجب خمسة أولاد توفى منهم اثنان فى حياته وواحد بعد وفاته بشهرين، بالإضافة لثلاث بنات تزوَّجْن وانتقلن مع ازواجهن بحثاً عن سبل الرزق .

* * *



(الفصل الرابع عشر)

الذاكرة الرابعة :سجين باسم الحب

إن مهمتك ليست البحث عن الحب ..
بل البحث بداخلك عن تلك الجدران والحواجز ..
التى تبقيه بعيداً ..

جلال الدين الرومى

استيقظ ناجى وقد بدا أنه نام قرناً من الزمان، فهو يشعر كأن عضلاته تيبست من طول ما رقد، فقام متثائباً فارداً ذراعيه بطولهما حتى سمع صوتَ تمدد عضلاته فعاد يتثاءب وهو يهرش فى شعره حتى خرج إلى الصالة يجول فيها بعينين لم تعتادا الضوء بعد، فنادى قائلاً:

- عائشة .

أجابه صمت مطبق ففكر أنها ربما خرجت لأى سبب أو ربما بالطابق العلوى، المهم الآن أن يحتسي كوباً من القهوة لينشط قشرته المخية وبعدها ينظر فى أمره، توجه إلى المطبخ مُزيحاً كل القوارير التى تستخدمها عائشة فى وصفاتها، وصنع لنفسه كوباً كبيراً من القهوة وهو يدندن لحناً شعبياً شهيراً فى فترة السبعينات وجلس على الأريكة يحتسيها



باستمتاع، نظر إلى يده حيث يرتدى ساعته ليعرف كم مضى عليه من الوقت نائماً فلم يجدها، تحسس جيوبه جيداً لعله يجد هاتفه الجوال لكنه كان قد اختفى هو الآخر، ظل يفتش فى كل الغرف التى دخلها لعله يجدهما وينظر للجدران، فربما يجد ساعة حائط تخبره عن الوقت، ولكن كل هذه الجهود كانت بلا طائل .. وهنا انتبه لشىء لم ينتبه له من قبل منذ لحظة دخوله وحتى الآن.. أنه لا يوجد نافذة واحدة للفيلا رغم اتساعها وإطلالتها المميزة على البحر، وكأن مَن صمّمها يريد أن يعزل مَن بداخل الفيلا عن الوقت، فمنذ وطأت قدماه أرض الفيلا مساء ذلك اليوم وهو لم ير ليلًا أو نهاراً.. حتى حين غضب على عائشة أول مرة وحاول الخروج لم يجد سوى الفراغ يحيط به من كل جانب.. ترى كم من الوقت مر عليه منذ مجيئه إلى هنا.. يومان.. ثلاثة.. عشرة.. لا يعرف حقاً.. ساعته البيولوجية تدمرت تماماً وفقد شعوره بالزمن.

يالله كم يشتاق إلى عائلته الآن!.. كم يشتاق لميرفت واحتضانها له!، لأول مرة منذ زمن طويل يشتاق إليها.. بل هى أول مرة يستشعر أنها كانت موجودة بجانبه أصلًا وأن فراقها مؤثر حقاً، فقد فقدا اتصالهما الروحى والنفسى بعد سنتين أو ربما ثلاثة من زواجهما بعد أن فشلت فى احتوائه وفشل فى تقبلها فعاشا كغريبين تربطهما علاقة واهنة، مجرد أنه اعتاد على وجودها فى حياته، أما الآن فهو يشعر بها حقيقية مجسمة فى عقله ومشاعره.. يراها حبيبته وزوجته ورفيقة كفاح دام عشرين عاماً من عمره أى ما يقارب نصف عمره تقريباً قضاه بجوارها ولم



يشعر بها.. اعتصر قلبه الحنين وشعر بغصة مريرة فى حلقه أنه ربما ظلمها طوال هذه الأعوام، لم يستطع التحكم بمشاعره أكثر من ذلك فترقرقت عيناه بالدمع الذى أبى أن ينهال على وجنتيه، وفى محاولة منه لنسيان ما اجتاحه من مشاعر قرر أن يفتح غرفةً جديدةً لعله يجد فيها مبتغاه ويستطيع العودة إليها.. إلى زوجته.. ميرفت.

دلف إلى الغرفة ببطءٍ هذه المرة وأغلق الباب فى هدوء منتظراً ما يحدث فى كل مرة ينتقل فيها إلى ذاكرته وعندما انتهت كل مراحل الانتقال وجد نفسه بصالة منزل أبيه يتنقل بملل من مقعدٍ لآخر حتى سمع رنين هاتفه الجوال، نظر إلى الشاشة فوجد رقماً ليس مألوفاً لديه فأجاب بحذَرٍ اكتسبه من طول خبرته بالأرقام الغير مألوفة لديه، فكل رقم غير مألوف يحمل مصيبة ما:

- السلام عليكم.

ليجيبه صوت أنثوى ناعم دغدغ أعصابه وخدرها تمامًا خاصة أنه فى تلك الفترة كان فى أوج ازدهاره الذكورى ونشوة شبابه :

- وعليكم السلام.. هل من الممكن أن أتحدث إلى نشوى؟

أصابته نوبة شديدة من الإحباط؛ لأنه سيُحرم من هذا الصوت الأنثوى المثير وقال :

- للأسف الرقم خاطئ يا آنسة.

بصوتٍ أكثر نعومة كأنها تتعمد تدمير أعصابه تماماً قالت:

- أنا آسفة للغاية.. يبدو أن رقم هاتفها يشبه رقمك بالضبط.



أحس أنها تود تجاذب أطراف الحديث معه فلم يتردد للحظة وقال ممازحاً:

- كم أود أن أشكر صديقتك نشوى هذه.

جاوبته ضحكة صافية مطلقة حمماً من هرموناته المراهقة فى دمائه وقالت:

- ولماذا تشكرها؟

- لأنها كانت سبباً فى أن أسمع صوتك.

كوغد فى العشرينات من عمره وكقارئ منذ نعومة أظفاره فقد كان يجيد معسول الكلام بل كان يجيد تركيب الكلمات والجمل تجعل أى فتاة ترتجف نشوة .

الآن أرى فظاعة ما كنت أرتكبه، كنت وغداً بحق كأى وغد آخر يغرر بفتاة باسم الحب ليوقعها فى حبائله.. اللعنة، إننى نذل بحق .

قالت بصوت يملؤه الدلال:

- يبدو أنك تحدث الكثير من الفتيات.

أجاب ضاحكاً وقال:

- على العكس تماماً.. أنا مستقيم للغاية.

عادت ضحكتها تجلجل عبر أثير الهاتف وقالت:

- لا يبدو لى ذلك.

- حسناً ألن تخبرينى باسمك؟

- اسمى سمر، وأنت؟



- أنا ناجى المنصورى .

هكذا ظلا يتحدثان طويلاً ويقتربان ببطء، وفى اليوم التالى اتصل هو بها وبادرها قائلاً :

- أتصدقين إذا أخبرتك أنك أوحشتنى .

صمتت ولم تجب ولكنه بخبرته التى تكونت عبر سِنينٍ من التعامل مع الفتيات حتى صار خبيراً لا يشق له غبار يعلم أنه صمتٌ يكتم صوت فرحة غامرة تعتريها الآن ثم قال بصوت متهدج يتقن تمثيله:

- لماذا لا تجيبين ؟

لو كان بيدى اتخاذ القرار فى تلك اللحظة لكنت اتخذت قرارى بقطع لسانى قبل أن يتفوه بتلك الكلمات لكننى للأسف حتى الآن لم أعرف كيف أغير قرارى، مضيت أراقب نفسى وأنا أصب كلمات العشق فى أذنيها حتى أحبتنى.

أحبتنى سمر بقوة وبعمق حتى صرت هواءها الذى تتنفسه ودواءها الذى يشفيها، ولكن مع تصاعد حبها تصاعدت معها غيرتها القاتلة، لا أذكر عدد الخلافات والمشاكسات التى خضناها سوياً بسبب أن تلك كلمتنى أو أن تلك أرسلت لى رسالة، ورغم أنها أعطتنى كل شئ وعلمتنى كل فنون الحب وأطلقت يديَّ فيها أرتع وألعب كما شئت إلا أنها لم تكن تطيق أن أنظر لأخرى ولو نظرة بريئة عابرة.

- لماذا تنظر لها هكذا ؟

- مَن هى؟



- تلك الفتاة التى مرت بجوارنا الآن .

- صدقينى، لم أنتبه إليها أصلاً.

- حقاً ؟، أتظننى غبية إلى هذا الحد؟

وهكذا تبدأ دائرة من النقاشات والمجادلات والصراخ والعواء حتى تنتهى بانفصالنا.. ولكن لحظة.. فانفصالنا لا يدوم أكثر من نصف ساعة حتى نتعاتب ونصفو ثم نعود لبعضنا مرة أخرى، فتسقينى من رحيقها، وتسحرنى بغنجها الأخاذ، وتعطينى من جسدها ما شئت ثم نتشاجر من جديد وهكذا فى دائرة مفرغة لا تنتهى.

هل أحببتها؟! .. لا أستطيع إجابة هذا السؤال الذى لطالما سألته لنفسى مراراً، فقط يصعب علىّ تخيّل خمسة أعوام من عمرى دون أن أتخيلها، كما يصعب أيضاً أن أقول: أننى أحببتها.. فلا حب يبنى على شهوة وجسد فحسب، ولكن هل كانت سمر شهوة وجسد فقط؟.. الحقيقة أننى أدمنتها.. أدمنت خضوعها لى وعشقها.. أدمنت عطاءها بلا حدود.. أدمنت طريقتها فى ممارسة الحب معى حتى أننى عانيت كثيراً فى بداية زواجى بميرفت؛ لأن لها طريقة أخرى غير ما اعتدتها مع سمر، كثيراً ما كنا ننفصل لفترات طويلة لم تتجاوز ثلاثة أشهر بأى حال من الأحوال.. بعدها إما أن يقودنى الحنين إليها أو يقودها الحب إلىّ.. وفى كلتا الحالتين كانت تعود مهما كان ما صدر منى، وكنت أعود مهما كان ما صدر منها، ولذلك أستبعد أن تكون علاقتى بها مجرد علاقة جسدية وشهوة تفرغ، فلا يوجد علاقة جسدية بهذه القوة والمتانة.



كادت سعادتى تكتمل معها لولا غيرتها الشديدة وحبها المفرط، فكما أن كل شئ يزيد عن حده ينقلب ضده كما يقول المثل فحتى الحب إذا أفرطنا فيه كبَّلَنا وأثار استياءنا وضجرنا، أن تعيش مع امرأة أنت محور حياتها لهى أمنية كل الرجال.. ولكننى أخبرك يا صديقى أن كل الرجال حمقى، فأنا كنت المحظوظ الوحيد الذى وجد هذه المرأة، وأنا المنحوس الوحيد الذى اكتشف خدعة أن تكون محور حياة امرأة.. فلا شئ يشغل عقلها سواك، ماذا أكلت؟.. ماذا شربت؟.. هل ذهبت إلى العمل؟.. ما الذى يضايقك ؟ .. لماذا تنظر إليها هكذا؟ .. لماذا تظهران معاً فى صورة واحدة؟.. أنت تخرج كل يوم مع أصدقائك وتتركنى.. يا إلهى.. نحن الرجال نعشق الاهتمام ولكننا نملّ من كثرة تفاصيله.. مع الوقت سيضيق صدرك بكل هذا الاهتمام، وستلعن ذلك اليوم الذى ارتبطت فيه بتلك المرأة، وستقرر أنه آن الآوان للفراق وأنه لم يعد بإمكانك الاحتمال أكثر من ذلك.. وستتمنى لو تتركك لشأنك ولو لحظات.. لن تعير انتباهاً لدموعها وبكائها وتوسلاتها بأن تبقى.. سيموت جزء من قلبك حتى لا يشعر بالندم، ستحاول أن تسد أذنيك عن صوتها المتهدج المبلل بدموع الحب والذل لكى تنجو بنفسك من هذا الاهتمام، سينفطر قلبك وينفجر ألف ألف مرة وهى تذكرك باللحظات السعيدة التى وهبتها لك كما حدث معى تماماً ولكنك ستكمل الطريق لنهايته.



الآن قد أوشكت الذاكرة على الانتهاء فقد بت أعرف وقت اقتراب النهاية، وعلى غرار حلقات برامج المسابقات الشهير حين تمسك المذيعة الفاتنة -والجاهلة كدابة الأرض فى الوقت نفسه- وهى تقول: "وهكذا نكون قد وصلنا لنهاية ذاكرة ناجى ووصلنا لمرحلة معرفة القرار، لو عرفت القرار الذى يجب أن يغيره ناجى اتصل بنا على على ٠٩٠٠ واكسب ألللللللف جنيه ". لا أفهم لمَ يمطون اللام إلى هذه الدرجة وكأنه أسلوب إغراء.. ما الإغر.....

ككل مرة تنتهى الذاكرة وأنا لم أكمل خواطرى، وحين عدت واستجابت عيناى للأضواء من جديد وجدت عائشة تجهز وجبة لنا، وحين استشعرتْ وجودى نظرتْ نحوى وقالت :

- أرى أنك استيقظت وأنهيت ذاكرة جديدة.

- ألم ترِى أيضاً أننى عدت ومعنى هذا أننى فشلت من جديد؟!.

- أخبرتك من قبل أنك لا تفشل.. أنت فقط تكتشف طرقاً جديدة لم تعرفها .. هل لى أن أسألك سؤالاً ؟

- تفضلى .

- فلتنس قليلاً أنك محتجز هنا.. ألم تفكر من قبل أن كل ما تمر به فى ذكرياتك تلك تضيف لك شيئًا ما ؟.. ألم تر شيئاً مختلفًا وتصبح نظرتك أعمق؟.. ألم تشعر أنك تزدد حكمة مع كل تجربة تخوضها ؟

نظرت لها بخجل وقلت :

- بلى، أنتِ محقة.



ابتسمت كعادتها وقالت :

- لا عليك.. هيا لنأكل .

تناولتْ الأطباق واتجهتْ نحو المائدة فنادها بصوت محايد يكاد يكون بارداً وقال:

- عائشة.

شعرت عائشة بالقلق فى تلك اللحظة فطريقة ندائه لم تكن مطمئنة فوقفت مولّية ظهرها له مما شجعه على الاستطراد قائلاً:

- أى وجبة تلك؟

التفتت له ببطء وقالت وهى تنظر لعينيه مباشرة:

- ماذا تعنى؟

- أعنى هل نتناول إفطاراً أم غداءً أم أننا نتناول العشاء؟.. ما الوقت الآن؟ وأين ذهبت ساعتى وجوالى؟

أجابت بصوت مضطرب جعل شكوكه تتزايد وقالت:

- وما يعنيك فى الوقت الآن؟.. لا قيمة للوقت هنا.

- ربما لا يعنيكِ الوقت هنا ولكنه يعنينى أنا.. كم الساعة الآن ؟

هذه المرة صرخت فيه غاضبة مما جعله يرتجف قليلاً:

- قلت لك لا قيمة للزمن هنا.. لست فى عالمك لتهتم بالوقت.. هل تكتكة عقارب الساعة هى عمرك؟.. هل حياتك تقيسها بعدد الأيام والشهور التى قضيتها فى هذه الحياة منذ ولدت وحتى تموت؟.. خطأ يا ناجى.. الزمن هو الأحداث.. هو الذكريات التى تعيش فيها الآن ليتحدد



مصيرك.. كم من شباب ماتوا فى سن العشرين وقد أضافوا للعالم قيمةً ومعنى جديدًا لم يقدمه المعمرون الذين تجاوزت أعمارهم مائة عام؟!.. الزمن وهْمٌ نعيشه فقط يا ناجى .

صمتَ أمام غضبتها العاصفة، فهذه المرأة - سواء كانت ساحرة أو جنية - هى تجسيد لهيستريا المرأة بشكل مطلق، فهى تتحول من قمة الرضا لقمة السخط فى لحظة واحدة، لم يعد خائفاً منها كما كان من قبل بل كان متعجباً من غضبتها تلك، نظر إليها فإذا بها تتنفس بعمق فى محاولة للسيطرة على أعصابها واستعادة هدوئها ثم قالت:

- آسفة يا ناجى لم أكن أقصد.. فقط أردتك ألا تشتت انتباهك بأمور فرعية لا طائل منها.

هدأ هو الآخر وقال يمازحها وهو يحاول تخفيف حدة التوتر بينهما:

- انسى الأمر.. ألن نتناول وجبتنا التى لم أعرف ما هى؟.

- بلى هيا.. لابد أنك تتضور جوعاً.

جلسا إلى المائدة ومازال عقل ناجى يتساءل.. لماذا تخفى عنه عائشة الوقت؟.. ولم يجد جواباً شافياً قط.

* * *



(الفصل الخامس عشر)

البحث عن ناجى

إن ما تبحث عنه بقلبك..

تجده بقلبك..

وإن ما تبحث عنه بعقلك..

لن تجده أبداً..

وإن ما تبحث عنه..

يبحث عنك..

من أقوال درويش مجهول

أول ما فعله "سمير" بعد أن ترك "نادرة" أن اتصل بصديقٍ له يحمل رتبة مقدم بالمباحث ليعرف منه آخر ما توصلت إليه التحريات عن حادثة اختفاء "ناجي"، مازال الهاتف يعطى ذلك الرنين الرتيب الذى يعنى أن الطرف الآخر بعيد عن الهاتف أو ربما يرى اسم المتصل فيفضل ألا يجيب ولكن صديقه لم يكن من هذا النوع لحسن الحظ فسرعان ما أجاب قائلاً:

- أخيراً تذكرت صديقك أيها النذل .

أجابه سمير ممازحاً :



- أنت تعلم أننى لا أتذكرك إلا لأمرٍ جللٍ، بالتأكيد لن أتصل لأطمئن عليك مثلاً .

أجابه ضاحكاً:

- كم أنت رقيق ومجامل، حسناً ماذا تريد؟.

- أنت تعرف القضية الخاصة بالبيت الذى انهار وصاحبه مفقود، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، الإعلام والصحف لا تتوقف عن متابعة هذه القضية لغرابتها.. ولكن لماذا تسأل؟

- أريد أن أعرف كل المعلومات الممكنة عن هذا الموضوع، خصوصاً تلك المتعلقة بصاحب البيت.

- حسناً انتظر معى للحظات.

ثم هتف منادياً الجندى الواقف عند باب الغرفة وقال:

- يا محمد.. اذهب للرائد عادل واطلب منه الملف رقم ١٠٣ بسرعة.

ثم عاد يضع الهاتف على أذنه مكملاً حديثه لسمير قائلاً :

- ولكن غريب أن تكون مهتماً بمثل هذه الأمور؟

أجاب سمير بتردد بدا جلياً فى صوته:

- أبداً.. إنه قريب لأحد أصدقائى وأوصانى أن أعرف أخباره ليطمئنهم.



نقلت له أسلاك الهاتف صوت ضحكات صديقه المجلجلة قبل أن يقول:

- كذبك مكشوف كالعادة، فطالما قلت قريب لأحد أصدقائى؛ إذن أنت تكذب، لا تنسَ أننى أتعامل مع مجرمين طوال الوقت وبالطبع الكذب سمة أساسية عندهم، عموماً لا عليك ها هو الملف قد وصل .

- ها ماذا به؟

- التحريات أسفرت أنه لا يوجد أى سبب واضح لانهيار العقار خاصة أن أساساته قوية والبيت مكون من طابقين فحسب، وأنه لا يوجد مصابون حيث أنَّ امرأته وأولاده قد خرجوا قبل انهيار البيت بلحظات، وحالياً يقوم فريق من الشرطة والجيش برفع الأنقاض .

صمت قليلاً ثم أردف :

- ولكن حتى الآن لم يُعرف لصاحب العقار أى أثر.

- وماذا عن زوجته والأولاد.. أين أجدهم؟

- هم حالياً مستقرون فى بيت والده ووالدته حتى تتضح الأمور .

- هل لديك العنوان؟

- بالتأكيد، سأرسله لك حالاً فى رسالة.

- أشكرك كثيراً يا صديقى .

- لا تشكرنى ولكنك ستدعونى على الغداء يوم الجمعة القادم.

أملاه العنوان وقد شكره سمير على عجلٍ وأنهى المكالمة، وتوجه فى التوِّ نحو العنوان المذكور.



ما إن وصل وطرق الباب ففتح طفل صغير تتبعه فتاة تتحسس خطواتها الأولى نحو الأنوثة فقال:

- مساء الخير.

ردت الفتاة ذات الثمانية عشر ربيعاً وقالت:

- مساء النور .. مَن حضرتك؟

- انا سمير، كنت صديقاً لوالدك.. يا ترى أستطيع الدخول؟

- تفضل.

قادته للداخل ثم أشارت إلى غرفة استقبال الضيوف فقالت:

- لحظة واحدة سأنادى والدتى .

دخل وجلس على أول مقعد صادفه وهو يحاول أن يرتب أفكاره المتناثرة بين خلايا مخه وهو يتساءل فى دهشة: لماذا تورطه نادرة فى مثل هذه الأمور؟.. ولكنه لا يستطيع أن يتخلى عنها أيضاً فكثيرًا ما تورطت فى أمور شتى بسببه.

- أهلاً وسهلاً.

هكذا نطقت "ميرفت" مرحبة بسمير بشئ من التحفظ، والتساؤل يطل من عينيها عن سبب زيارته مما جعله يتنحنح ليسيطر على شعوره بالحرج الذى يشل لسانه ثم قال:

- أنا اسمى سمير.. الحقيقة أننى لست صديقاً شخصياً لناجى، لكن جمعتنى به الصدف فى أكثر من مناسبة ونعرف بعضنا البعض جيداً.



صمت محاولاً معرفة أثر كلماته عليها إلا أنها ظلت تنظر له بعينين متسائلتين دون أن تنبس ببنت شفة فاستطرد قائلاً :

- أنا عرفت الخبر من الإعلام، وسألت حتى وصلت لعنوان حضرتك، وجئت لأطمئن عليكم.

أجابته ميرفت بشئ من الحزم دون أن تبدو متصلفة أو قليلة الذوق وقالت:

- أشكرك على مشاعرك النبيلة يا أستاذ سمير.. ولكن نحن والحمد لله لا نحتاج سوى عودة ناجي سالماً.

بدت له ميرفت جبلاً من الرسوخ والثبات والثقة لا يتناسب مع امرأة فقدت زوجها ولا تعلم مصيره، كما بدت أيضا أن الشك يراودها بشأنه ولولا أصول اللياقة لطردته فوراً لذا فقد آثر أن ينسحب بهدوء فقام واقفاً معلناً أن زيارته قد انتهت وقال:

- سيعود بسلامة الله إن شاء الله.. على العموم هذه رقم هاتفى، إذا جدَّ أى جديد أو احتجتم لأي شئ أرجو أن تهاتفينى حضرتك.

- أكيد إن شاء الله وشكراً لك على سؤالك.

استأذنها وعاد مباشرة إلى كفر الدوار حيث تنتظره نادرة متلهفة لسماع ما لديه، ولكن ماذا لديه ليخبرها به ؟.. فهو لم يأت بجديدٍ سواء من اتصاله بصديقه أو بزيارة عائلة المدعو ناجى.. ولكنه يمكن أن يؤكد لها على الأقل أن البحث ما زال جارياً وأنهم لم يعتبروه من المفقودين



بعد، زاد من سرعة سيارته ليلحق بنادرة قبل أن تعود مع زوجها ويصبح تقابلهما مثار تساؤل وجدل.

فى ذات الوقت كانت نادرة تقرض أظفارها توتراً وقلقاً، وعقلها يصور لها مئات الاحتمالات الممكنة والمستحيلة. وسلوى ما زالت بجانبها تحاول أن تسرى عنها وتلتمس لها الأعذار حتى تصرف عنها تساؤلات العائلة. فعلى الرغم من عدم اقتناعها بما تفعله أختها لكنها لن تتخلى عنها فى مثل هذه الظروف.

سمعتا أصوات الترحيب بالخارج؛ فعلمتا أن سمير قد عاد فخرجت سلوى مرحبة به فى حين انتظرت نادرة قليلاً وخرجت تشاركهم جلستهم حتى يتسنى لها الفرصة المواتية للانفراد بسمير التى ما إن سنحت حتى سألته نادرة بلهفة:

- ها ماذا فعلت ؟

- لا جديد، الشرطة مازالت تبحث عنه .

- وما العمل الآن ؟!

- صدقينى لا نقدر على عمل شئ فى الوقت الحاضر سوى الدعاء له ليس إلا.

- إذا عرفت أى شئ بلغنى به فوراً .

- إن شاء الله.. لا تقلقى .

ثم نظر سمير باتجاه سلوى نظرة فهمت منها ما يقصده فأجابته بنظرة تحمل كل معانى العجز واليأس، ففى مجتمعاتنا الشرقية



والمنغلقة بعيداً عن المدن الكبرى تصبح ما تفعله نادرة الآن مثيراً للتساؤل والانتقاد وستصبح سيرتها موضوع أسمارهم لشهورٍ قادمة، لذلك قام سمير بما يعتبره بمثابة العملية الانتحارية حيث قال موجها حديثه لنادرة منتقداً:

- نادرة.. أريد أن أقول شيئاً .

أجابته نادرة شاردة دون أنت تنظر حتى نحوه:

- لا تقل.. أنا أعرف ما تود قوله، وأعرف أيضاً أن سلوى تود قول نفس الشئ.. وكلاكما على صواب، وأنا فقط المخطئة، وما أفعله الآن ليست تصرفات زوجة تحترم زوجها وعائلتها، الله وحده يعلم كم أحب أحمد وأحترمه، لكن ثمة أمور لا أقدر أن أمنع نفسى من القلق بصددها، صدقونى لا أستطيع .

قالتها وأجهشت بالبكاء فاحتضنتها سلوى وتولدت داخل سمير الرغبة فى معرفة مصير ناجى بأى شكل.. ومهما كلفه الأمر.

* * *



(الفصل السادس عشر)

الذاكرة الخامسة: أرض السراب

فبين غربة فى وطنك ..
وبين غربة فى أرض الله ..
من قال أن بلاد الغرب حلم ..
ففى الغرب بلغ زهدى منتهاه ..

انتهينا من وجبتنا، تبادلنا خلالها الأحاديث والتطرق إلى موضوعات عادية بعيداً عما يحيط بنا من أجواء غرائبية، وبعدها أعدت لنا كوبين من الشاى الممزوج بوريقات النعناع، شربته باستمتاع حتى شعرت أننى اذا مت الآن سأموت راضياً؛ مما أدهش عائشة وجعلها تتساءل قائلة:

- لماذا تبدو راضياً إلى هذا الحد ؟!

- ماذا تقصدين ؟

- أقصد أنك عجيب يا ناجي.. ربما كنت ثانى أغرب إنسان رأيته، تغضب بقوة وتنتشى بقوة وترضى بسهولة وتسخط بسرعة، قلبك يتفجر بالمشاعر لكنك حين تسيطر عليها تذبل وحين تسيطر عليك تفقد ذاتك، انظر إلى كل ذكرياتك ستجد ما أقوله واضحاً بشدة.. ربما تحتاج أن تعيد النظر فى أمر مشاعرك .



- ربما كان كلامك على شئ من الصحة لكننى لم أتعود أن أكون إنساناً روتينياً أقرب إلى الآلة، تعودت أن أحيا بعمق وأن أتشرب الحياة بداخلى.. نحن لم نخلق لنسعى وراء لقمة العيش بل خلقنا لنعيش ولكى نعيش لابد أن يكون لنا هدفٌ نسعى إليه أهم من لقمة العيش.. ولكى يتحقق هذا الهدف لابد من بعض المعاناة وكثير من الألم، وبعد الألم تكون الراحة والسكينة وهكذا، لذلك إذا لم نشعر بعمق لن يكون لوجودنا أى معنى .

نظرت له ضاحكة وقالت :

- أنت فيلسوف إذن .

أجابها ممازحاً :

- فقط حين أكون محتجزاً فى عالم آخر كما تعلمين .

- حسن أيها المحتجز.. هل ستكمل طريقك أم ستظل محتجزاً ؟

أجابها وهو يحاول أن يكتم ضحكاته:

- بل يجدر بى أن أسرع فى إنهاء لعبتك، فقد سئمت طهيك السئ.

قالها ونهض متجهاً نحو غرفة فى ركن قصى من الصالة فقالت:

- حسناً.. أتمنى لك التوفيق هذه المرة .

نظر لها بامتنان ودخل الغرفة فقالت فى نفسها:

- عجباً يا ناجى.. أى رجل أنت.. ففى ظل هذه الظروف الحالكة تستطيع أن تمزح .

* * *



- أتتذكرنى ؟

رسالة من كلمة واحدة وجدها فى الصندوق الوارد الخاص بحسابه على ذلك الموقع الشهير للتواصل الاجتماعى فأعادت له ذكريات بعيدة، فهذه المرة أرسلته الغرفة لذاكرة ما قبل زواجه بأشهر معدودة حين استقبل منها هذه الرسالة، قرأ الاسم مرات عديدة ليتأكد أنها هى حقاً، وفاء أحمد.. تخرجت فى كلية السياحة والفنادق، زميلته التى أحبها حين عرف الحب لأول مرة، جميلة كانت بعينيها الملونتين وأنفها الصغير المدبب وشفتيها المكتنزتين وبشرتها التى تضاهى الحليب بياضاً، سحرته حين رآها ذات مرة بصحبة بعض أصدقائه فلم يتردد فى الذهاب إليهم والتعرف إليها وتعجب أن ينبض قلبه بهذه القوة لمرآها، هل أحبها حقاً؟.. بالتأكيد أحبها فى تلك الفترة، الحب الأول الوردى الذى يتغذى على الأحلام والأوهام.. ولكن لم يمض على ارتباطهما بضعة أشهر حتى افترقا.

كيف لرجل شرقى مفعم بشرقيته أن يحيا مع امرأة متمردة غارقة حتى أذنيها فى التمرد.. مستقلة إلى حد أن رجلها لا مكان له فى حياتها سوى واجهة اجتماعية، لم يحتملا كثيراً وانفصلا ثم عرف خبر خِطبتها لقريبٍ لها وأخبره بعض الأصدقاء المشتركين أنها هاجرت إلى الولايات المتحدة وانقطعت أخبارها تماماً حتى أرسلت له تلك الرسالة التى تقول فيها :

- أتتذكرنى ؟

- آه بالطبع، مثلك لا ينسى .

- حقاً ؟

- بكل تأكيد .

ثم أردف بما يوحى بثمة عتاب :

- فأنا لا أنسى أحداً .

تصنعتْ أنها لم تفهم إشارته وقالت :

- كيف حالك يا ناجى ؟

- بخير والحمد لله وأنتِ ؟

- بخير، هل لى أن أطمع أن نتكلم من جديد أم أنك لا تود أن تعرفنى مرة أخرى؟

لا يعلم لماذا شعر أن ثَمَّ خطب ما قد حدث لها، فهو ليس معتاداً هذا الانكسار فى طريقتها فى الحديث، مما دفعه لأن يقول :

- يمكنك أن تحدثينى فى أى وقت .

أرسلت له رقمها فاتصل بها فى ذات الوقت كأنه يخشى أن تفوت الفرصة وحين سمع صوتها انتابته أحاسيس متضاربة.. مزيج من الحنين والفرحِ والتوجس والاشتياق.

- مرحبا !!.

بترددٍ يقولها وكأنه مقدم على أمر جلل..

- كيف حالك ؟

- بخير.. أين أنتِ ؟



- فى الولايات المتحدة.. وأنت ؟
- أنا مثلما كنت دوماً.
- تزوجت؟
- لا ليس بعد، يبدو أننى إنسان يصعب معاشرته.. ماذا عنكِ ؟
- مثلك تماماً.

كل لحظة مرت عليهما فى تلك المكالمة استعادت مئات الذكريات من الماضى ورسمت آلاف الخطط للمستقبل، شعر بحنين جارف إليها وتمنى فى تلك اللحظة لو احتضنها وأراح رأسها على صدره، ساعة وراء ساعة ويوم يتبعه يوم والمسافة بينها تتقلص حتى صارا قاب قوسين أو أدنى، وشعر أنهما استعادا حبهما القديم، أو ربما توهم هو ذلك فلم يتردد فى أن يفاتحها فى أمر ارتباطهما ثانية فقال:

- وفاء.. أنا مازلت أحبك .
- وأنا لا أنكر أننى مازلت أكن لك الكثير من المشاعر يا ناجى، ولكن بداخلى الكثير من المشاكل والعقد، أنا لا أصلح لك ولا لغيرك.
- سأساعدك على تجاوز كل مشكلاتك وسأحل كل عقدك.
- ليست تلك هى المشكلة الوحيدة.
- كل المشاكل يمكن حلها بس قولي لى ما المشكلة؟
- كيف سنعيش وأين؟
- مثل أى زوجين متحابين، فى أى مكان يتفقان عليه.



- لكنى لن أترك أمريكا، لقد استقرت بى الأمور هنا ولن أقدر على العيش فى أى بلد عربي من جديد.

- ولكنها ليست وطننا ولن تكون حتى لو عشنا فيها ألف سنة وأخذنا منها ألف بطاقة جنسية.

- لكنك لا تتخيل الحياة هنا، أنا سأرسل لك كافة الأوراق المطلوبة وسأساعدك على إكمال دراساتك العليا وسأجد عملاً لك ونبنى مستقبلنا.

أجابها بحزم وكأنه ليس عنده استعداد حتى لمناقشة الأمر:

- ليس لى مستقبل خارج مصر، نعم من الممكن أن أسافر سنة أو اثنتين أو حتى عشرة، لكنى فى النهاية سأعود .

قالت بصوت مكسور لم يعتده منها قط:

- أهذا قرارك النهائى؟.

بصوت خفيض وقلب منقبض أجابها قائلاً :

- نعم، فبعيداً عن ادعاء الوطنية وأن مصر أم الدنيا وكل هذه الشعارات، أنا لا أستطيع العيش فى مكان آخر.

انتهت المكالمة بسلام فاتر من الطرفين، ترى هل كان هذا القرار صائباً؟!.. ماذا كان لديه فى مصر آنذاك؟.. والداه ؟.. أصدقاؤه ؟ .. أماكن أحبها ؟.. كل هذه الأشياء يمكن تعويضها.. حتى والداه فبإمكانه أن يرسل لهما دعوة لزيارته هناك أو حتى يستقدمهما للعيش معه.. لكنَّ شيئاً ما يربطه بهذه الأرض.. كل أصدقائه الذين استشارهم فى هذا الأمر



أيدوا هجرته.. الحب.. والعمل.. والطموح.. أرض جديدة.. أرض الأحلام والفرص.. لكنه ليس مستريحاً لهذا الأمر.. لطالما حيره نفوره من الهجرة إلى الولايات المتحدة، شئ ما يجعله يدرك أنها ليست أرض الأحلام والعدالة والقيم كما يتم الترويج لها عبر الإعلام والأفلام الهوليودية، ربما بسبب هذه الأفلام تحديداً يخشى الذهاب إلى هناك، فحيث الجميع ينجذب للمشاهد البراقة والأبطال الخارقين، يرى هو التفاصيل الدقيقة بين المشاهد، فيرى مثلاً أن الكثير من الأزواج قد يترك زوجته وطفله ويهجرهم سعياً وراء ملذاته الشخصية والعكس قد يكون صحيحاً، يرى انهياراً اجتماعياً يحاول ألا يبدو كذلك أمام العالم، يرى فى الزاوية صورته كعربى جاهل همجى بربرى متوحش، وفى أحسن حالاته هو ثرى خليجى يتم استغلال ثرواته، يرى دولة تم تأسيسها على أشلاء أمة كاملة من الهنود الحمر تم إبادتهم والاستيلاء على موطنهم، يرى شعباً يلهث طوال الأسبوع ليسدد ديون البنك الذى يكاد يستعبده، حين يتم التسويق لبلد ما على أنها أرض الأحلام فاعلم أنها فخ محكم الإعداد لاصطيادك، وبعدها سيغدو الهروب مستحيلاً.

لذا فقد كان رفضه قاطعاً، فلئن كان واثقاً أن ثَمَّ قرار واحد فقط فى حياته هو الصائب لكان هو هذا القرار، ليس هذا هو القرار الذى يجب تغييره .

ما أن وصل بتفكيره إلى هذه النقطة حتى وجد نفسه تلقائياً فى صالة الفيلا دون أن يمر بالمراحل المعتادة لانتهاء الذاكرة، وعائشة



تحتسى قهوتها وتدخن سجائرها كالمعتاد وعلى شفتيها ابتسامة زادتها فتنة على فتنتها فسألها مندهشاً:

- ماذا حدث ؟!

أجابته وابتسامتها تتسع وتشرق حتى ملأت وجهها كله وقالت :

- لقد أدركت يا ناجى .

- أدركت ماذا؟

- أدركت ما القرارت التى ينبغى أن تغيرها والقرارات التى كانت صائبة.

أجابها متهللاً وسألها بلهفة:

- إذا فقد اجتزت اختبارك وأستطيع العودة ؟

- ليس بعد.. أنت فقط تقدمت خطوة فى اللعبة ولكن هذا لا يعنى أنك اجتزتها.. أرجوك لا تفقد صبرك الآن وتغضب.. لقد اقتربت كثيراً.. صدقنى لم يبق الكثير.

- حسناً لا بأس .. أنا أصدقك .

- حقاً ؟

قالتها برقة لم يعتدها منها من قبل، ربما شعر باهتمامها.. بكرمها.. بقوتها.. لكنها أول مرة تتكلم معه بهذه الرقة كفتاة مراهقة تكلم حبيبها. تجاهل رقتها وأجاب بصوت محايد:

- حقاً .. ولكن لدى سؤال .

- ألا تسأم من الأسئلة يا ناجى ؟!



ابتسم لسأمها وقال :

- لا .. فليس كل يوم تدعونى ساحرة للعشاء.

ضحكت لدعابته وقالت :

- اسأل ما بدا لك.

- قلتِ من قبل:"أننى ثانى أغرب رجل قابلته، فمن كان الأول ؟".

ضحكت بشدة لسؤاله حتى سقطت على الأريكة من كثرة الضحك مما أثار دهشة وحنق ناجى فقال غاضباً :

- ما الذى يضحكك إلى هذا الحد ؟

- لأن غرابتك ليست من قبيل المصادفة.. فأغرب رجل على الإطلاق كان ....

صمتت برهة لترى علامات الإثارة على وجهه ثم قالت :

- كان جدك المنصور .

قالتها وعادت تضحك وقد بلغ الذهول بناجى مبلغه وهو يردد بصوت خافت:

- جدى؟!.. المنصور ؟!.. أتقصدين جدى الأكبر ؟!.

تمالكت عائشة نفسها من الضحك وحاولت أن تلتزم الجدية وهى تقول:

- نعم، جدك.. فقد جاء جدك إلى هنا قبلك.. وخاض الاختبار مثلك تماماً.

- هل خاض أحد أجدادى هذا الاختبار غيرنا ؟ .



- الكثير منهم خاضوه عبر العصور منذ عائشة الأولى وحتى أنا.. والآن وقد أجبتك ماذا ستفعل الآن ؟

- سأكمل.. فيجب أن أخرج من هنا سريعاً.. أشعر أننى قضيت وقتاً طويلاً هنا برغم أنه فعليا ربما لم أتجاوز بضعة أيام.

اتجه مباشرة ناحية الغرفة قبل الأخيرة.. فلم يبقَ أمام ناجى سوى غرفتين فقط سيجرب إحداهما الآن وبعدها لن يستطيع العودة إلى عالمه ثانية، لذا فقد فتح الغرفة وكله أمل وإصرار أن يجد قراره المنشود.. وهناك فى صالة الفيلا حيث تمكث عائشة التى نظرت له بإشفاق وقال :

- مسكين أنت يا ناجى.. لا تعرف كم مكثت هنا .

* * *



(الفصل السابع عشر)

الذاكرة السادسة: ميرفت

أدنيتنى منك حتى ..
ظننت أنك أنى ..
وغبت فى الوجد حتى ..
أفنيتنى بك عنى ..

* *

" قالوا كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم "
سورة الكهف

هذه المرة وجدت نفسى يوم زفافى، مرتدياً بذلتى السوداء وقميصاً ناصع البياض، بينما ارتدت ميرفت فستانها الأبيض متأبطة ذراعى فى سعادة ومن حولنا أفراد العائلتين وبعض أصدقائى وأصدقائها والكل يتراقص حولنا فى بهجة وكأننا فى زار لتحضير الجن، ما زلت أذكر ذلك اليوم جيداً، غمرتنى السعادة وهى بين يدى تشرق ابتسامتها فتحمو كل إرهاق الأعوام التى عانيت فيها قبلها، وما أن انتهى الحفل وخلونا ببعضنا فى عش زوجيتنا السعيد حتى حملتها من أمام باب الشقة وحتى غرفة نومنا وقلت :



- مبارك يا حبيبتى .

- بارك الله لى فيك.. لن تتصور مدى سعادتى اليوم.

- أخيراً يا حبيبتى.

يختفى مشهد زواجنا وأجدنى فجأة أتشاجر مع ميرفت ..

- ولماذا تتحدثين معه من الأصل؟

لابد أننى كنت أقصد ابن خالتها السمج..

قالت بصوت موشك على البكاء:

- يا ناجى، أرجوك قلت لك مائة مرة: أنه مثل أخى تماماً.

- أتعرفين ؟!.. أنا لا أكره كلمة فى حياتى قدر كلمة مثل أخى هذه.. لا يا ميرفت.. أنا لا أعرف لك أخاً سوى حسام.. غير هذا لا أعرف .

- يا ناجى هذه ليست طريقة للنقاش .

أشاح بوجهه وهمّ بالقيام وهو يقول :

- هذه طريقتى .

تصمت برهة ثم تقول بصوت منكسر وهى تحتضن كفى بين يديها:

- حاضر يا ناجى سأفعل ما يرضيك .

هممت بالرد عليها لكن المشهد تغير من جديد حيث وجدتنى جالساً معها فى غرفة المعيشة حيث كانت تتربع على الأريكة تقرأ كتاباً ما وأنا أشعر بالملل لا أجد ما أفعله فقلت حانقاً:

- وماذا بعد ؟



نظرت باتجاهى متوجسة.. ربما لأنها تتوقع شجاراً وجدلاً لا ينتهى، قالت برقة :

- ماذا بعد يا حبيبى؟

زفرتُ بملل ينم عن ضيقى:

- أستظلين تقرأين هكذا وتتركينى وحدى؟

- يا حبيبى أنت لا تتكلم وقد خشيت أن أزعجك؟

- أيجب أن أتكلم أنا؟ لماذا لا تتحدثين أنتِ معى؟

كانت عيناها تفصحان أنها تبذل مجهوداً خرافياً للسيطرة على أعصابها وقالت:

- أنا آسفة يا حبيبى.. ها أنا تركت الكتاب.

أخذتنى العزة بالإثم فلوحت بيدى وقمت متجهاً نحو غرفة نومى حيث أغير ملابسى وقلت:

- بهذه البساطة؟ لا، أكملى كتابك، أنا سأذهب إلى المقهى.

هل عيناها تلمعان أم أن تلك دموع حبيسة لكرامة جريحة؟.. لا يهم.

هذه المرة أجدنى فى غرفة نومنا وأنا أقرأ كتابا وهى بجانبى.. يبدو أن بذرة الجفاء قد بدأت تنمو بيننا وبدا جلياً أننى أسقيها وأرعاها كما ينبغى دون أن أدرى، اعتدلتْ فى جلستها بعد أن كانت تولينى ظهرها وقالت :

- ما بك يا حبيبى ؟



نظرتُ لها بعينين ميتتين وقلت :

- لا شئ أنا بخير.

- أنت لا تتحدث معى منذ أيام.. أفعلت شيئاً يغضبك؟

- لا، لم تفعلى .

- إذن ما بك ؟

- لاشئ، أحسست فقط أنى أرهقك بمشاعرى فقررت أن أحتفظ بها داخلى .

فهمت ما يصبو إليه من تلميحات وعتاب مبطن فقالت معتذرة:

- لا يا حبيبى صدقنى أنا لا أقصد شيئاً كهذا، ناجى أنت تعرف كم أحبك، لكنى لا أعرف كيف أعبر عن حبى هذا بالشكل الذى يرضيك، أقسم بالله أننى أحاول إرضاءك بشتى الطرق، أحياناً أنجح وأحياناً أفشل، ولكن صدقنى أنا أتمنى أن أسعدك.

- حسناً لا بأس .

ورغم برودة ردودى وجدتها تقترب من أذنى وتقول بصوت هامس ملئ بالرغبة :

- أوحشتنى .

قالتها وهى تقبل شحمة أذنى فتثير فى جسدى قشعريرة الرغبة ولكنى وجدتنى بدلاً من ذلك أعقد حاجبى فى ضيق وأقول دون أن أنظر لها:

- أرجوكِ يا ميرفت، ليس لى طاقة لأى شىء .



أحسست أن قلبها انفطر بعد هذه الكلمة، فلا شيء يكسر الأنثى ويشعرها بالإهانة أكثر من شعورها بأنها ليست مرغوبة ممن تحب، كم كنت قاسياً حينها؟!، وكم كانت مغلوبة على أمرها بحبها لى؟!.. ثمة أنواع من الحب هى أقرب للآثام وظلم النفس.. وأظن أن حبها من ذلك النوع.. لم أرَ دموعها تلك الليلة لكنى سمعت نهنهاتها وهى تحاول أن تكتم بكاءها عنى.

لم أستطع تحمل بكائها الذى يذكرنى بقسوتى فطويت صفحات الكتاب وخرجت إلى غرفة مكتبى أعبث بحاسوبى النقال لعلى أنسى ما حدث منذ قليل، وكأننى كنت فى حاجة إلى مزيد من الألم فأثناء تصفحى فى محتويات الحاسوب فى محاولة لتزجية الوقت وقعت عيناى على صورتها.. نادرة.. صورة زفافها تحديداً، ولأن القدر يعشق السخرية فقد تصادف أن ميرفت جاءت خلفى لتعتذر وتسترضينى كعادتها فلمحت الصورة، وهنا انهار السد وفاض التنور، لم تعد تستطيع التحمل أكثر من ذلك، قالت كلاماً كثيراً كجرح متقيح منذ زمن طويل وينز صديداً فيغرق كل ما حوله، قالت أنى أنانى، وأننى متبلد الشعور.. وأننى رغم كل ما فعلت من أجلى فمازلت أحن إلي نادرة التى تزوجت منذ عامين وأكثر، قالت كلاماً كثيراً لا يغتفر.. ولأننا كنا قد أنجبنا صافية آنذاك فلم يكن الانفصال حلاً ممكناً، ولكن روحانا قد انفصلتا منذ تلك اللحظة، ذهب الحب وبقى حسن العشرة والاحترام المتبادل وكأننا جاران يجمعهما طابق واحد .

لم أتوقف بعد هذا الموقف عن متابعة حساب نادرة الشخصى على ذلك الموقع الشهير للتواصل الاجتماعى يوماً، جوع أَبَدِى لمعرفة أخبارها، وإدمان لا يمكن الإقلاع عنه لتتبع لحظات حياتها أولاً بأول، لم يعد يعنينى آنذاك إذا لاحظتنى ميرفت أم لا، بالتأكيد لاحظت ولكنها تجاهلت الأمر فلم يعد بيننا لوم أو عتاب، غريب.. للحظة أدركت أن هذه الذاكرة تخلو من أى قرار يمكن اتخاذه، لابد أن هناك خطأ ما.. هل خدعتنى عائشة ؟.. أم أنه خطأ غير مقصود ؟.. أم أنه ليس خطأ بالأساس ؟

- ليس خطأ بالأساس.

فوجئت بصوت عائشة يتردد بعقلى ووجدتنى أعود من الذاكرة وأننى مستلقٍ على أرضية الصالة كالعادة، فاتجهت ناحية الأريكة - التى صارت المفضلة لدى - وجلست بجوار عائشة وقلت :

- لا أفهم .

- لا يوجد خطأ بالذاكرة .

- ولكننى لم أجد أى قرارات يمكن تغييرها وبالتالى فقدت فرصتى قبل الأخيرة للرجوع.

- ليس بالضرورة أن يكون القرار واضحاً ومباشراً.. فثمة قرارات ضمنية نتخذها فى حياتنا دون أن نشعر.

- تقصدين أنه يجب علىّ استنتاج القرار ثم تغييره ؟

- نعم .



- ولكنها فرصتى الأخيرة الآن.. عائشة يجب أن أعود.. لقد مر حوالى أسبوع دون أن أرى زوجتى وأولادى ولا أعرف مصيرهم .

قالت وهى تحاول النظر بعيداً :

- ليس أسبوعاً يا ناجى .

أجابها بقلق:

- ربما كانوا عشرة أيام..بكل الأحوال لن يتجاوز ذلك الأسبوعين.

قالت بسرعة فور أن أتم جملته الأخيرة وكأنها أرادت أن تحسم ترددها :

- أنت هنا منذ سبعة أعوام بزمن عالمك .

مشاعر شتى اجتاحت جسد ناجى فى تلك اللحظة، فكأن أحدهم قد ألقى عليه دلواً مليئاً بالثلج، خليط عجيب من المشاعر فهو بين عدم التصديق والدهشة والإنكار والغضب والقنوط، سبعة أعوام من عمره لم يشعر بها، سبعة أعوام قد يتغير فيها وجه الكون، التفت ناحية عائشة ينظر لها باستجداء وكأنه يتمنى لو كانت تداعبه دعابة قاسية وقال:

- ماذا ؟.. ماذا تقولين ؟

لم تجد إزاء صدمته مفراً من أن تبدو قاسية وتقول فى صرامة :

- كما سمعت يا ناجى.. لقد مرت عليك سبعة أعوام منذ دخلت إلى هنا.

صرخ كأنه يعذب فى قعر الجحيم وقال بصوت مدوى :



- اللعنة عليك.. ألف لعنة .

همّ بأن يهاجمها كما فعل أول مرة متجاهلاً أثر ذلك الحرق على ذراعه حين هاجمها أول مرة، لكنها بدلاً من أن تهاجمه أو حتى تلوذ بالفرار فوجئ بها تفرد ذراعيها على الجانبين فى الوقت الذى لم يستطع أن يوقف فيه اندفاعه فارتطم بها و .... ووجد نفسه فى الفراغ ذاته الذى ألفه، وقف يحملق فى الظلام المحيط به من كل جانب وهو يصرخ.. مرة شاتماً وأخرى متوسلاً، شعر بشئ ما يتوهج على يساره وبحرارة شديدة تلفحه، فنظر فإذا بها شيء يشبه هالة من النور وكأنها تلفاز ينقل له بثاً حياً يرى فيه ابنته صافية.. نعم إنها هى، ولكنها كبرت.. كبرت سبعة أعوام تحديداً، لابد أنها التحقت بالجامعة الآن.. ترى أى كلية التحقت بها ؟!.. دائما ما كانت تخبره أنها تحب الصيدلة، لابد أنها التحقت بكلية الصيدلة كما وعدته، انهمر الدمع من عينيه غزيراً كأم ثكلى فقدت ابنها الوحيد.. مدّ يده محاولاً لمسها ولكن يده اصطدمت بشئٍ صلبٍ لا يدرى ماهو.. زاوية الرؤية تتحرك حتى تثبت خلفها لتمكنه من رؤية ما تفعله.. كان يبدو أنها تكتب خطاباً.. يقترب المشهد قليلاً وكأنه يستخدم خاصية ال zoom .. الآن يمكنه قراءة ما تكتبه .

" لا أعرف أين أبى الآن.. فجأة اشتعلت النار فى مكتبه دون سبب واضح.. أتذكر هذا اليوم كأنه كان بالأمس، انتابنا الذعر وهرعنا إليه ندق باب غرفة مكتبه بعنف دون جدوى.. نادينا عليه حتى تقطعت

أحبالنا الصوتية دون جدوى.. الجدران ترتج بعنفٍ كأنها أصابها الشلل الرعاش، خافت أمى أن ينهار المبنى علينا فقادتنا جميعاً إلى الخارج على أن تعود لاصطحاب أبى لكنها لم تجد الوقت الكافى.. بمجرد خروجنا انهار البيت كأن لم يكن.. انهار البيت وأبى داخله.. أتذكر كيف ارتجفت كمن مسه تيار كهربى شديد القوة، نبكى بحرقة والجيران يحتشدون من حولنا.. ينظرون إلينا ككائنات هبطت عليهم من كوكب آخر.. لا أحد يجرؤ على خدش الصمت بكلمة.. لا أحد يفهم ما حدث.. لا أحد يعرف ما سيحدث.. أحدهم انتشل نفسه من الذهول واتصل بالنجدة.. وسرعان ما جاءت فرق الإنقاذ وعربات الشرطة – إن لم تكن مصرياً فسرعان هذه تعنى بعد ثلاث ساعات فقط – جاءنا رئيس المباحث يواسينا بكلمات جافة خالية من أية مشاعر ثم أملى محضراً روتينياً وانصرف بعد أن أبلغ أمى أن تأتيه فور أن تفيق من صدمتها.. لكن الحق أن فرق الإنقاذ والجيران بذلوا مجهوداً كبيراً.. قلبوا الأنقاض حجراً حجراً.. لكنهم لم يجدوا أبى حياً.. أو ميتاً.. ترى أين أنت يا أبى؟.. ماذا جرى لك فى تلك الليلة المشؤومة؟! ..حين تناولت معنا العشاء ليلتها



كنت متسرعاً مرتبكاً تريد إنهاء الحديث والعشاء بسرعة على غير ما عودتنا.. كأننا نعوقك أن تخلوا بنفسك إذ سرعان ما اختطفت كتابك وهرعت إلى حجرة مكتبك.. وحدث ما حدث.. بعدها بأيام زارنا ذلك الرجل الذى يدعى سمير مدعياً أنه صديقك وأنه يطمئن علينا، لكننى أو أمى لم نرتح إليه.. شعرنا أن له غرضاً آخر من زيارته.. سبعة أعوام يا أبى مرت علينا بدونك، لقد التحقت بكلية الصيدلة كما وعدتك يا أبى، سبعة أعوام من اليتم والشقاء والحيرة.. أبى.. أفتقد حضنك بشدة، أشتاق لصوتك الحنون وأنت تهمس بأذنى: " صرتِ فتاة رائعة .. أجمل حتى من أمك .. ولكن لا تخبريها بذلك " .. لا أتصور حياتى بدونك.. عد يا أبى .. عد أرجوك" .

* * *



(الفصل الثامن عشر)

الذاكرة السابعة: وبناءً على ما سبق

لم يستطع ناجى أن يتحمل أكثر من ذلك فسقط أرضاً - إن كان يمكننا أن نطلق على ما فى الفراغ أرضاً - وهو يرتجف ويبكى وهو مغمض العينين كأن عينيه أرهقتا من هول ما رأى، ورغم ما هو فيه من كرب وأنه مغمض العينين إلا أنه شعر بتغير الإضاءة وبالدفء يسرى فى أوصاله وأحدهم يربت عليه، ففتح عينيه فوجد عائشة جالسة بجانبه على الأرض تحتضنه بشدة كأنها تريد حمايته من شئ مجهول وهى تقول:

- أنا آسفة يا حبيبى.. ليت الأمر بيدى.. ليتنى أستطيع.

نظر لها بعينين دامعتين وقال لها:

- صافية يا عائشة.

- أعرف يا حبيبى أعرف.. فقط استرح الآن.

بلغ الجهد منه مبلغه فغفا على صدرها، فى حين أنها لم تتحرك وبقيت كتمثالٍ جامدٍ حتى لا توقظه ورغم التصاقهما وأنها تعرف كل ذكرياته لكنها - حتى وإن كانت ساحرة - لم تستطع أن تعرف ما يحلم به ناجى، فأحلامنا سر من أسرار خلقنا كَسِرِّ الروح.

بقيا على ذلك الوضع ما يزيد قليلاً عن الساعة لم يتحرك فيها أى منهما، وإن كان ناجى يتنفس بانتظام ودموع عائشة تنحدر على



وجنتيها ببطء وهى تراقب جسد ناجى المسترخى الذى بدا لها فى تلك اللحظة طفلاً فقد أمه وسط الزحام حتى أرهقه البحث عنها فأوى إلى جدار يستظل به من حر الشمس وظلم الناس فكانت هى هذا الجدار.

عادت تنظر إلى عينيه فوجدت بؤبؤهما يروح ويجئ يمنة ويسرة، ففكرت ترى بماذا تحلم يا ناجى؟!.

- جدى.

صرخ بها ناجى منادياً جده وهو يسير خلفه فى صحراء مترامية الأطراف فى حين لم يبد على جده أنه سمع نداءه فعاد ينادى والصحراء تردد صدى النداء:

- جدى.. أنا ناجى .

لم يلتفت الجد هذه المرة أيضاً ولكنه توقف عند بقعة ما من الصحراء، ولأن أحلامنا عادة ليست مقيدة بالمنطق فقد وجد ناجى نفسه أمام جده فى ذات البقعة وهو يبتسم له ويمد له يده ويقول:

- أوحشتنى يا ولد يا ناجى .

هدأ ناجى وقال:

- وأنت أيضاً يا جدى أوحشتنى كثيراً.

- قلبك مازال كما هو يا ناجى.. مازال - رغم كل شئ - أبيضًا .

ثم تهجم وأشاح بوجهه عنه وقال:

- ولكنى غضبان منك يا ولد .

ارتاعت عينا ناجى وقال :



- لماذا ؟!

- لأنك نسيت ما قلته لك.

- ماذا قلت لى يا جدى؟

لكنه لم يستمع إليه فقد أولاه ظهره ومضى فى طريقه وهو يردد: "نسيت كلام جدك.. والكلمة سر".

حاول ناجى اللحاق به ولكن قدميه تزنان أطناناً حتى لا يكاد يستطيع رفعهما عن الأرض.. ولمح فى السماء حدأة تنظر له بحدة ثم صرخت بصوت حاد هاتفة باسمه:

- ناجى.

ظل متابعاً الحِدأة بعينيه حتى اختفت فى الأفق وهى تصدر ذلك الصوت الحاد الذى يهتف باسمه.

- ناجى.

واستيقظ.. فقد كان النداء من عائشة التى تحاول إيقاظه بعد أن ظنت أنه يرى كابوساً. فتح عينيه وكأنه يرى المكان لأول مرة ثم قال :

- عائشة.

- نعم يا حبيبى.

تجاهل مناداتها له بحبيبى وقال:

- سأدخل الغرفة الأخيرة الآن.

- ألن ترتاح قليلاً؟ .. أنت فى حاجة للراحة.

- لا وقت للراحة. فالوقت يمر.. فقط اصنعى لى فنجان قهوة .



- حالاً .

قامت تصنع له القهوة وتركته يلملم شتات نفسه ويجمع تركيزه، تحامل على نفسه حتى استلقى على الأريكة وهو يستعيد كل ما مر به منذ أن اشترى ذلك الكتاب وقد بدت له الأحداث بعيدة وكأنها حدثت فى زمان آخر.

- تفضل القهوة.

- أشكرك.

تناول منها القهوة وبدأ يحتسيها وعقله شارد فى عوالم أخرى لم تدرِ عائشة عنها شيئاً وإن تعجبت من كونه صار متماسكاً إلى هذا الحد وكأنه ما كان يرتجف فى أحضانها منذ لحظات، رأته يقف بمجرد أن أنهى قهوته ولم يعرها أى انتباه هذه المرة وتوجه نحو الغرفة الأخيرة والذاكرة الأخيرة.. التى ستحدد مصيره.. للأبد.

هذه هى المرة الأخيرة التى يدلف فيها إلى إحدى غرف ذكرياته.. عجباً.. شعر أنه لم ينتقل إلى ذاكرة بل فقط غرفة تكتسى جدرانها بالكامل بالمرايا.. حتى الباب عجز عن معرفته بعد أن اختلط بباقى المرايا.. نظر فى أول مرآة صادفته.. لأول مرة منذ دخل هذه الفيلا يرى وجهه فى المرآة.. هل شابت بعض الشعيرات فى رأسه أم أنه واهم؟.. اقترب من المرآة مدققاً حتى تكثف بخار أنفاسه على سطح المرآة، لكنه رأى ما جعله ينتفض متراجعاً.. لقد رأى نادرة تقف خلفه، التفت بسرعة حتى كاد يفقد توازنه فلم يجد شيئاً، عاد ينظر للمرآة فوجدها



تبتسم وتمد يدها إليه، لاحظ أن شفتيها تتحركان كأنها تقول شيئاً ما، فاقترب واضعاً أذنه على المرآة فسمع صوتها كأنه يأتى من بئر لا قرار لها وتقول:

- ناجى.. أنت أفضل صديق قابلته فى حياتى وصدقنى لم أنسك أبداً ولن أفعل، من الممكن أن نكون قد تبادلنا مشاعر الحب فى أبرأ صورها فى فترة ما، ولكن من يدرى ماذا كان من الممكن أن يحدث لو كنا تزوجنا، صدقنى قدرنا هو أفضل ما حدث لنا، انظر للأمام دائماً يا ناجى ولا تفكر فيما مضى.

- نادرة .

صرخ بأعلى صوته لكنها لم تجِبه، نظر للمرآة فلم يجد سوى انعكاسه ووجهه الذى يرتسم عليه آيات الألم، تحرك ببطء ماشياً فى أرجاء الغرفة ينظر فى كل المرايا فلا يجد سوى مئات منه تتحرك بِحِيرة وعدم فهم.. اقترب من إحدى المرايا يتأمل ملامحه من جديد لعله يجد ناجى الذى يعرفه، شعر بمَن يحتضنه من الخلف فنظر ولكن ككل مرة لم يجد أحداً، نظر فى المرآة من جديد، فوجد سمر تحتضن انعكاسه من الخلف.. اقترب بأذنه من المرآة ليسمع ما تقول..

- ماذا تشتهى يا حبيبى ؟

ود لو يخبرها أنه لم يعد يشتهى شيئاً فى هذا العالم، ود لو يخبرها كم هو آسف.. ود لو طلب منها أن تسامحه لكنه لم يستطع قول شىء.. لم يستطع سوى أن يسمعها..



- لم تبتعد يا حبيبى؟.. تعال إلىّ لأسقيك منى.. لابد أنك جائع لحبيبتك.

لم يستطع أن يمنع دموعه من الانهمار بصمت على وجنتيه، وتوجه ناحية مرآة أخرى، وقف أمامها كأنه يقف أمام ضميره متهدل الكتفين، أسيف الملامح فطالعته صورة وفاء، فعاد يلصق أذنه بسطح المرآة البارد..

- أتتذكرنى؟

بالطبع يتذكرها.. بالطبع يود لو نسيها.. تركها ليذهب لمرآة أخرى يرى فيها بعض آثامه.. مد كفه ليمسح دموعه التى تعيق رؤيته وتطلع للمرآة باهتمام، هذه المرة رأى ميرفت تحتضن طفليهما فعاد يجهش بالبكاء وهو يستمع لما تقول :

- عد يا حبيبى فمازلت أنتظرك.

- ليتنى أستطيع يا حبيبتى.. ليتنى أستطيع.

- صافية وآدم يشتاقان إليك كثيراً .

لم يستطع احتمال المزيد.. فتوجه للمرآة الأخيرة فى ركن الغرفة القصى ونظر إليها وهو يتساءل ما الذى سيطالعه الآن، ولم يدم تساؤله طويلًا فظهر على لجين المرآة جده والنور يشع من وجهه ويبتسم له ابتسامة واسعة..

- قل يا ناجى .

- ماذا أقول يا جدى ؟



- قل يا ناجى.. اللهم صلِّ على سيدنا محمد.. الفاتح لما أغلق.. الخاتم لما سبق.. ناصر الحق بالحق.. الهادى إلى صراط الله المستقيم.

ردد ناجى خلف جده بقلب خاشع متبتل.. لم يشعر بمثل هذا الخشوع من قبل..

- قل يا ناجى.. باسم الله خالق النور والنار.. باسم الواحد القهار.. باسم الله منعم الأبرار.. باسم الله مبطل عمل الفجار.. باسم الله الغفور الغفار.

ردد الكلمات وشعر بها تتغلغل فى كيانه وتربط على قلبه، لم يعد حزيناً أو خائفاً.. أكسبته الكلمات قوة نفسية لم يعتدها فى نفسه.. فاشتد عوده وجفت عينه وانتظمت أنفاسه.. لمح مقبض الباب بجانبه، فتعجب أنه لم يره من قبل حين دخل الغرفة ولكنه لم يعر الأمر اهتماماً فكل ما يحدث له غريب منذ أن وطأت قدماه هذه الفيلا. أدار مقبض الباب وخرج فوجد أنه عاد إلى الصالة التى قضى فيها سبعة أعوام بزمن عالمه، ولكن الأمر الذى لم يكن طبيعياً على الإطلاق كان عائشة. فقد وجدها ترتدى ثوب نوم ضيق قصير فوق ركبتيها وقد برزت مفاتنها واستلقت على الأريكة وقد وضعت إحدى رجليها فوق الأخرى فانحسر الثوب أكثر، أى رجل هذا الذى يمكنه الصمود أمام فتنة كتلك..

- أهلا يا حبيبى .

أجاب بصوت متحشرج وهو لا يستطيع أن يرفع عينيه عنها، فما زال - رغم كل ما مر به -رجلاً مفعمًا برجولته وقال :



- أهلا.. ما هذا ؟

قالت بصوت هامس كالفحيح أثار أعصابه:

- أأعجبتك؟

تنحنح حتى لا يفقد السيطرة على نفسه وقال:

- والآن ماذا؟

- هل عرفت القرار يا حبيبى؟

أجاب بأسف وهو مازال يتطلع إلى نهديها المكتظين :

- لا، فقط رأيت كل آثامى وأخطائى وعشتها من جديد.. لكنى لم أعرف ما الذى يربط بينها وأى قرار يجب أن أغيره.. أرجوك أعيدينى .

قالت بصوت جاد حازم:

- آسفة يا ناجى.. لا أستطيع، أنت تعرف اتفاقنا من قبل.. ستبقى معى هنا للأبد.

ثم رق صوتها ثانية وقالت :

- هوّن عليك يا حبيبى .

- حبيبك ؟!!

- نعم حبيبى.. لقد أحببتك يا ناجى.. لقد تجاوزت تقاليد عائلتى التى سنتها عائشة الأولى التى تنص ألا نقع فى الحب مهما حدث.. لكننى أحببتك.. حاولت مراراً أن أمنع نفسى من حبك فلم أستطع.. كل يوم كان حبك يترسخ بقلبى ويزداد تعلقى بك.

أجاب بصوت واهن لم يقنعه هو نفسه :



- زوجتى؟.. وأولادى ؟

قالت وهى تحتضنه بين ذراعيها لما أحست به من وهن فى رده :

- ربما تكون قد تزوجت.. لقد مرت سبعة أعوام يا ناجى .. سبعة أعوام تغير فيهن كل شىء.. ربما لم تعد تحبك.. أنت لم تكن سعيداً معها رغم كل شىء.. لكنى سأهبك كل شىء.. الحب والسعادة وكل ما تتمناه.

نظر لها بصمت وهو يعجز عن اتخاذ أى قرار، فكل السبل قد أغلقت فى وجهه.. لا يستطيع العودة ولا يستطيع البقاء.. رغم هذا التعلق الذى بدأ يراوده بعائشة، فقد اعتاد عليها ولا يستطيع تخيل حياته الآن بدونها.

اقتربت منه أكثر وألقت بنفسها فى حضنه وذراعيه يلتفان حولها ببطء متردد، بينما أنفاسها الحارة تلهب وجهه وتجعل الدماء تغلى فى عروقه من الرغبة وقالت هامسة:

- حبيبى.. أعلم أنك تشتهينى مثلما أشتهيك، فقط اترك نفسك لى ولا تخف.

* * *



(الفصل التاسع عشر)

العائد

قربت شفتيها منه وغابا فى قبلة طويلة وهى تجلس على رجليه كأنها تمتطى جواداً، ازدادت قبلاتهما سخونة وحين همّ أن يعلوها برقت آلاف الصور فى ذهنه فجأة بلا مقدمات.

* *

" ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه "

سورة يوسف

* *

تحكى الأسطورة عن امرأة حسناء تدعى عائشة قنديشة تفتن الرجال بجمالها وتستدرجهم إلى وكرها حيث تمارس الجنس معهم ومن ثم تقتلهم.

* *

والنار يا صغيرى قد تكون نار الحقد أو نار الطمع أو نار الشهوة ولن تستطيع تفاديها.. فإذا شعرت بالنار تقترب منك فألق بنفسك فيها ولا تخشَ شيئاً.. فالنار لا تحرق من أراد التطهر.. ولكنها تحرق مَن يخشى الألم.. وأنت لا تخشى الألم .

* *



دفعها بقوة عنه؛ ففقدت توازنها وسقطت أرضاً وهى تنظر له باستغراب شديدٍ وهو يقول :

- لا يا عائشة.. آسف لن أستطيع.. ربما تكونين صادقة فى حبك لى، فأنا لم أر منك إلا خيراً.. حتى ما ورطتنى فيه فلعله خيراً.. فقد رأيت حقيقة نفسى، على الأقل حتى وإن لم أعد فلن أكرر أخطائى ثانية.. وإلا يصبح كل ما مررت به بلا معنى.

مد إليها يده ليعاونها على النهوض من سقطتها وهى تنظر له صامتة، فقال:

- سامحينى.

ترقرقت عيناها بالدموع وابتسمت وقالت بصوت مختنق:

- أسامحك، مبروك يا ناجى.. لقد اجتزت الاختبار.

- ماذا؟

- نعم يا ناجى.. لقد كان قرارك الذى يجب أن تغيره أن تقول لا.. فطوال عمرك لم تقل لا لأى غواية.. غواية الحب.. وغواية الجنس.. وغواية التسلط.. لم تقل لا أبداً يا ناجى، لكنك الآن قلتها.. قلتها لى أنا.

وأجهشت بالبكاء فاحتضنها مشفقاً حتى هدأت قليلاً وجففت دموعها بمنديل ناولها إياه وقالت:

- هيا يا ناجى لا تتأخر.



مضى بخطوات متخاذلة نحو الباب وهو ينظر لها من حين لآخر. أمسك مقبض الباب والتفت ينظر لها فقالت:

- وداعاً يا ناجى.

- وداعاً.

خرج من الفيلا فاستقبلته رائحة اليود ونسمات البحر الباردة أنعشت روحه، ربما يكون قد فقد سبعة أعوام من عمره لكنه تعلم الكثير بالفعل.. تحسس جيبه فشعر بشئ صلب بداخله، التقطه فإذا به جواله، لقد أعادته إليه عائشة إذن.. نظر فيه ليعرف تاريخ اليوم.. الرابع والعشرون من نوفمبر الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.. عجباً.. لابد أن شيئاً ما خطأ.. فالتاريخ الذى يشير له الجوال يعنى أنه لم تمر سبعة أعوام.. بل ولا حتى سنة واحدة.. أخدعته عائشة حين أخبرته أنه مر عليه سبعة أعوام؟ .. أم أن الزمن مر على الجوال فى ذلك العالم كما مر عليه ؟.. لابد أن يفكر فى ذلك لاحقاً.. ولكنه سيتأكد أولًا أن بيته ما زال كما هو ولم يتحطم كما رأى فى تلك الفيلا.. استوقف سيارة أجرة وأخبر السائق العنوان وظل يدعو الله فى سره أن يجد البيت.

لم تمر عشر دقائق حتى وجد نفسه أمام منزله كما عهده.. لم يتغير فيه شئ، فحمد الله كثيراً وأنقد السائق أجرته بسخاء، وهرع إلى المنزل بشوق، مرتقياً درجاته المتهالكة، حتى وصل إلى شقته، كل شئ كما تركه بالضبط، أخرج مفتاح غرفة المكتب ودلف الغرفة، هى الأخرى لم



تمس منذ أن تركها ليقرأ الكتاب أمام البحر، حتى الكتاب وجده قابعاً على المكتب كما هو.. عجباً.. ألم يأخذه معه إلى البحر؟.. لا يهم.. لا يهم أى شئ الآن.. لقد عاد.. جلس على كرسى مكتبه وقد أراح رأسه عليه علّه يستريح قليلاً مما مرّ به.

- ناجى.

- عائشة؟

- نعم يا حبيبى.

- ماذا حدث؟!.. لم تمر سبعة أعوام كما أخبرتنى.

ابتسمت له ابتسامة مشرقة وقالت :

- هذا صحيح يا ناجى.. لقد أعدتك إلى ذات الزمن.

- هل كان كل ما مررت به حلماً؟

- ربما.. حياتنا كلها مجرد احتمالات يا صغيرى.. ماذا لو كنت تزوجت سمر؟!.. ماذا لو كنت سافرت الولايات المتحدة بصحبة وفاء؟.. ماذا لو أنك لم تقرأ الكتاب؟.. ماذا لو أنك لم تأت معى؟.. أنا فقط أعدتك للحظة دخولك معى.. تمتع باختياراتك الآن.. واختر جيداً.

قالتها وهى تبتعد.. وهو يحاول أن يستوقفها ليسألها المزيد..

- ناجى.. استيقظ يا ناجى .



استيقظ فوجد ميرفت تقف بجانبه، لابد أنه غفا على كُرسيّه.. ابتسم لها ابتسامة رائقة وقال وهو يجذبها إليه:

- أوحشتنى يا فتاتى.

نظرت له بتعجب، فمنذ أعوام لم يظهر لها أى مشاعر أو رومانسية.. طال صمتها فقال مجدداً وهو يبتسم ابتسامة رائقة :

- لماذا تنظرين لى هكذا؟!، أقول لك أوحشتنى.

- وأنت أيضاً أوحشتنى بالتأكيد لكننى متعجبة قليلاً.

رفع كفها إلى شفتيه ليطبع قبلة طويلة عليه وقال:

- لا تتعجبى، فمن اليوم لن تسمعى سوى كلمات الغزل، وسامحينى إن أسأت إليك فى وقت ما.

بدأ القلق يساورها وتلاعبت الظنون بعقلها وقالت:

- ناجى.. لا تقلقنى عليك.. أأنت بخير؟

- لم أكن بخير منذ فترة طويلة مثل اليوم.. كل ما فى الأمر أنى كنت أفكر فى حياتنا سوياً، فوجدت أن هناك الكثير من المواقف كنت مخطئاً فيها.

- حسناً يا حبيبى، المهم أنك بخير، ألن تغير ملابسك لترتاح قليلاً، تبدو متعباً.

نظر لها نظرة تفهمها جيداً عندما يشتهيها وتتملكه الرغبة وقال :

- بالطبع، وأين ستكون راحتى سوى بين أحضانك.



لمحت أثرًا للحرق على ذراعه والذى يبدو عليه القدم فقالت مندهشة:

- ناجى.. ماذا حدث لذراعك؟.. هذه أول مرة أرى مثل هذا الحرق.

- لا تفكرى فى أى شئ الليلة.

قالها وهو يحملها بين ذراعيه كأول ليلة لها معاً واتجه بها نحو غرفة نومهما وهى تقول من بين ضحكاتها بصوت منخفض خشية أن توقظ الأولاد:

- ماذا تفعل أيها المجنون؟

لم يجِبها وألقاها على السرير وأطفأ الأنوار.. شعر فى تلك اللحظة أنهما تزوجا اليوم فقط .

* * *

(الفصل العشرون)

آدم

والله ما طلعت شمس ولا غربت..

إلا وحبك مقرون بأنفاسى..

ولا خلوت إلى قوم أحدثهم..

إلا وأنت حديثى بين جلاسى ..

ولا ذكرتك محزونًا ولا فرحًا ..

إلا وأنت بقلبى بين وسواسى ..

ولا هممت بشرب الماء من عطش ..

إلا رأيت خيالًا منك فى الكاس ..

جلس ناجي أو " سيدى ناجى " كما صار مريدوه ينادونه مسنداً ظهره إلى الحائط ويحيط به عشرات من مريديه يرددون خلفه الأذكار والأوراد وأبيات الشعر فى الحب الإلهى، بعد أن عاد ليعتنى بطريقة جده ويصبح على رأسها، ومن حين لآخر يطوف به طيف عائشة وهى تقول:

- هل تريد منى أن أفعل مثلك ؟.

- مثلى ؟!!

- نعم حين تركت مشيخة طريقة جدك وأوكلتها إلى من ينوب عنك واقتصرت على أن تهتم بشؤونها المادية فقط.. أنا لا أستطيع



التخلى عن جزء من ذاتى يا ناجى وإلا ستصبح قراراتى بلا معنى كما أخبرتك من قبل .

لذا فقد قرر أن يستعيد ذلك الجزء من ذاته، متجاهلاً ذلك الذهول الذى انتاب مساعده الأستاذ عزت وهو من أقدم مريدى الطريقة حين سأله عن عباءة جده ومسبحته، ولكنه لم يبد أى اعتراض بل كانت الفرحة ترسم آياتها على ملامحه وهو يلبسه العباءة بنفسه ويقدم له المسبحة، ثم يقبل يده فى احترام كما يقول العرف فى الطرق الصوفية، لقد صار ناجى شيخ الطريقة أخيراً.. وقد شعر فى تلك اللحظة التى خرج فيها على مريديه وجلس بينهم أنه استعاد جزءاً من كيانه بعد أن دام الفراق لأعوام .

* * *

- نادرة .. لقد عاد .

قالها سمير بانفعال جارف محدثاً نادرة عبر هاتفه الخلوى، منصتاً لما قد تقوله نادرة ولكنه لم يسمع سوى تنهيدة ارتياح عميقة قبل أن تقول بصوت خافت:

- حمداً لله.. حمداً لله.. أشكرك كثيراً يا سمير.

- لا عليكِ يا عزيزتى.

أغلقت نادرة هاتفها منهية الاتصال وقد علت شفتيها ابتسامة صافية التى ما أن لمحتها شقيقتها سلوى حتى قالت على مضض:

- حمداً لله على سلامته .



نظرت لها نادرة دون أن يبدو على ملامحها أىّ من أمارات الغضب وقالت:

- أعلم ما دار وما يدور فى عقلك يا سلوى، ولكن آن لكِ أن تفهمى ما حدث.

اعتدلت سلوى فى جِلستها وأصاغت السمع فى حين قالت نادرة :

- أنا وناجى لم تربطنا يوماً علاقة حب، رغم ما تبادلناه من مشاعر بريئة دون إفصاح، بل إنكِ عايشتِ جزءاً من هذه العلاقة معى، بعدها فرقتنا الأيام وأحببت أحمد وتزوجته، كما تزوج ناجى أيضاً وانتهت حكايتنا عند هذا الحد.

صمتت قليلاً تسترد فيها بعض أنفاسها التى تقطعت قلقاً الأيام السابقة ثم أردفت:

- ولكن ظل بأعمق نقطة من نفسى جزءٌ يتذكر ناجى ويحييه من آن لآخر دون أن يؤثر ذلك فى حياتى على شئ، وحين علمت بما حدث له انتفض ذلك الجزء بداخلى مطلقاً ذلك الكم من الخوف والقلق الذى رأيته منى، ولكنها كانت كصحوة الموت، فما أن علمت أنه قد عاد سالماً حتى انتهى ذلك الجزء بداخلى، لقد حررتنى تلك الحادثة من ذكرى ناجى، ثم تنهدت بارتياح وقالت :

- إلى الأبد .

* * *



" فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى " سورة طه

الغواية.. لكل منا غوايته.. وكما أنه من المستحيل أن تتطابق بصمة شخصين فإنه من المستحيل أيضاً أن تتطابق غواية شخصين حتى وإن جمعهما غواية شيء واحد مثل النساء.. فمَن تغويه النظرة غير مَن يغويه الجسد أو مَن تغويه الرقة.. الغواية شيء متأصل فى تاريخ الإنسانية منذ الغواية الأولى لآدم - عليه السلام - كأب للبشر وحتى لحظتنا هذه.. وكما أن الغواية تختلف من فرد لآخر فإن تعاملهم معها أيضاً يختلف.. منهم مَن يسقط فوراً أو يقاوم قليلاً ثم يسقط أو يقاوم كثيراً.. ومنهم أيضاً من ينتصر ولكنهم قليل كَقِلَّة المسلمين يوم بدر.. لكننا لن نتكلم عن هؤلاء.. نحن نتكلم عمَن يسقطون.. أما أنا فكان لى مع الغواية شأن أخر.. تجربة غيرت كل ما عرفته عن الغواية.. ولكن هل كنت أعلم شيئاً عنها من قبل؟.. الذى يسقط فى الغواية يعتقد أنه قد أحاط بها علماً.. لكن الحقيقة أننى لم أعلم شيئاً عنها إلا... إلا حين ظهرت لى عائشة أو كما يسمونها فى موطنها " *عائشة قنديشة*".

أنا آدم.. أنا البدء من جديد.. أنا سليل عائلة المنصورى.. الأخير.. بلا حواء أحيا.. بلا جنة أعيش.. ولكن ها هى الشجرة المحرمة أمامى.. صندوق خشبى مزخرف بقطع النحاس والعاج كصناديق



المصاحف يبدو أن أحدهم قد اشتراه من خان الخليلى منذ زمن بعيد كما يوحى به القِدَم المرتسم على كل نقش من نقوشه.. يبدو من ثِقَله أن الكتاب ما زال بداخله.. سمعت كثيراً عن هذا الكتاب من أبى – رحمه الله – لكنى لم أفهم شيئاً عن خطورته إلا أن التحذير كان شديد اللهجة.. لا يُفتَح الصندوق ولا يُقرَأ الكتاب أبداً.. ترى أى خطر يكمن هذا الكتاب ليحذرنى منه أبى وهو الذى كان عاشقاً للقراءة؟.. لقد أحببت القراءة منذ الصغر والكتب عادة ما تثير فضولى .. لم أتوقف عن القراءة إلا أننى حين انطلقت هرموناتى من عقالها تلهب جسدى بسياط الشهوة وتلك الأحاسيس الجديدة التى يعرفها كل مراهق.. تلك اللذة الخفية والمتعة المحرمة.. انشغلتُ عن عقلى بجسدى وعن كتبى بأجسادهن.. مازلت أذكر بعد كل تلك السنين كيف تركت كتبى يعلوها الغبار وعقلى يعلوه الصدأ وانطلقت فى غمار الدنيا أنهل رحيق النساء حتى الثمالة.. الآن أنا وحدى.. الكل ذهبوا وتركونى فلم يبقَ مؤنس لى سوى الحسرة.. من فضلك أبقِ المصباح مطفئاً.. أصبح الضوء يعمينى.. الظلام هو الحل الوحيد الآن.. ترى هل الظلام يحيط بجسدى فحسب أم أنه امتد لروحى فلم تعُد تبصر؟!.. أرجو ألا يكون ذلك قد حدث فمازلت بحاجة لبصيص من الضوء أقرأ عليه تلك الكلمات التى خلّفها لى أبى.. لا أفهم شيئاً لكنى أحاول.. البداية صعبة دائماً.. وأنا البداية.. أنا آدم.. لكنى لم أتخلص بعد من حيرة أبى.



فتحت الصندوق ببطء - هل يوحى الأمر بأسطورة صندوق بندورا - فانفتح كاشفاً كتاب اصفرت أوراقه وتحته ترقد أجندة أبى الخضراء الذى اعتاد أن يكتب فيها خواطره، التقطت الأجندة أتأملها.. ما زالت رائحة أبى عالقة بها، فتحتها أقرأ بعض خواطره على الضوء الخافت حين لمحت ورقة مطوية بعناية ومحشورة بين الصفحات.. التقطتها وفضضتها بعناية وأنا أتساءل ما الذى يجعل أبى يضع ورقة كتلك بين خواطره .

" حبيبى وقرة عينى آدم ..

أعلم أنك على الرغم من كل التحذيرات التى قلتها لك ستفتح الصندوق وتقرأ الكتاب.. لن تكون ابنى إذا لم تفعل.. لقد ورثت عنى الفضول وحب القراءة، لقد كان لى مع هذا الكتاب قصة طويلة ستقرؤها الآن بين صفحات أجندتى.. ربما لن تصدقها وتظن أنّ أباك كان مخبولاً.. لكنها حدثت بكل تفاصيلها الغريبة.. وستجد أيضاً كتاب عائشة.. مازلت أنصحك للمرة الأخيرة ألا تقرؤه، ولكنك طالما اتخذت قرارك، فاعلم أن ما يشكل حياتنا كلها هى مجموعة القرارت التى نتخذها، فقرار كقراءة كتاب كهذا ربما لن يغير حياتك.. ولكن مجموعة القرارت التى ستترتب عليه قد تغير مجرى حياتك للأبد.. فاختر جيداً .

والدك المحب

ناجى المنصورى



عائشة قنديشة

" لربما ظننت أن قدرك مكتوبٌ سلفاً في اللوح المحفوظ ، ولكن صدقني هذا ليس صحيحاً على الإطلاق ، فقد كنت ساذجًا مثلك قبل أن أقابلها .. ولكني تعلمت - كما أنك ستتعلم - أن الذي يسقط في الغواية يعتقد أنه قد أحاط بها علماً ولكنه لن يتخيل أبدًا أنها .. أحيانًا تكون هي سبيلنا الوحيد للخلاص "

ناجي المنصوري

غلاف : إسلام مجاهد

